



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة السانية وهران

كلية العلوم الاجتماعية

قسم الفلسفة

تخصص فلسفات أنجلوساكسونية - الحديثة والمعاصرة

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير

بعنوان

تعرية السياسة الأمريكية من خلال مجهر تشومسكي

وموقفه من الدين والميتافيزيقا.

من إعداد الطالب:

باقي عبد السلام

تحت إشراف:

د. بوشية محمد

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيسا	جامعة وهران	أ.د. سواريت بن عمر، أستاذ التعليم العالي
مقررا	جامعة وهران	د. بوشية محمد ، أستاذ محاضر (أ)
مناقشا	جامعة وهران	أ.د. دراس شهرزاد ، أستاذة التعليم العالي
مناقشا	جامعة سيدي بلعباس	د. قسول ثابت ، أستاذ محاضر (أ)

السنة الجامعية: 2013 / 2014م

الإهداء

بدأنا بأكثر من يد وقاسينا أكثر من هم وعانينا الكثير من الصعوبات وهانحن اليوم والحمد لله
نطوي سمر الليالي وتعب الأيام وخلاصة مشوارنا بين دفتي هذا العمل المتواضع.

• إلى مزارعة العلم والإمام المصطفى إلى الأبي الذي علم المتعلمين إلى سيد الخلق إلى
رسولنا الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

• إلى الينبوع الذي لا يمل العطاء إلى من حاكته سعادتي بخيوط منسوجة من قلبها إلى
والدتي العزيزة.

• إلى روح من سعى وشقي لأنعم بالراحة والمناة الذي لم يبخل بشيء من أجل دفعي في
طريق النجاح الذي علمني أن أرتقي سلم الحياة بحكمة وصبر إلى والدي العزيز رحمه الله.

• إلى من وقفني في ظمري وسندتني في كل فترة من فترات هذا العمل زوجتي الغالية.
• إلى البسمة التي أنعم الله بها على ابني الحبيب.

• إلى من حرصه يجري في عروقي ويلمح بذكراهم فؤادي إلى أخواتي وأخواني.

• إلى من سرنا سوياً ونحن نشق الطريق معاً نحو النجاح والإبداع إلى من تكأ تفننا بدأ بيد
ونحن نقطف زهرة وتعلمنا إلى أصدقائي وزميلاتي.

• إلى من علمونا حروفها من ذهب وكلمات من درر ومبارات من أسمى وأجلى عبارات في
العلم إلى من صاغوا لنا علمهم حروفها ومن فكرهم مزارة تنير لنا سيرة العلم والنجاح إلى

أساتذتنا الكرام.

شكر وعرفان:

في كثير من حالات النفس ما تضيق العبارات وتعجز عن الانطلاق، فنعجز عن الإفصاح عن ما في دواخلنا، وليس من وسيلة هناك إلا أن نتوسل اللغة من أجل ذلك، وليكتمل عملنا هذا لا بد أن نرفع أسمى آيات الشكر والعرفان لله العزيز الحكيم، صاحب المن والعطاء على تسديده وتوفيقه وإيمانه لنا.

كما أتقدم بالشكر الجزيل والتقدير الغزير إلى د. بوشيبة محمد، الذي قبل الإشراف على هذا البحث، وتابعه ووجهه إلى أن أصبح مكتملا اللحظة، ولولا ذلك لما خرج هذا البحث من الغياهب إلى نور الوجود، وأود أن أشكر أيضا أ.د سواريت بن عمر على الدعم الكبير الذي قدمه لنا، كما أتقدم بجزيل الشكر أيضا لكل من قدم يد العون والمساعدة، وأخص بالذكر كل من زملائي مشرفي قريبي، وزروخي عبد الوهاب، وكذا أمي الثانية مسعودي نصيرة.

فإنكم كلتم الشكر والعرفان.

باقى عبد السلام.

حقائق

مقدمة:

لقد مثل الدين جزءا هاما من الفكر والاعتقاد البشري، إذ تميزت مختلف المجتمعات البشرية بديانة معينة، فنجد أن هناك اختلافات جمة في تحديد أول ديانة عرفها الإنسان الأول، حيث تراوحت الآراء بين الديانة السماوية الموحدة والتي ربطها المؤرخون بالصح التي أنزلها الله على شِيث ابن آدم، والديانة الهندوسية، ونحن كمسلمين فإن الاعتقاد الأصح عندنا هو أن أول من جاء لهذه الدنيا جاء موحدا وهو "آدم عليه السلام" وابنه شِيث، لتتوالى بعد ذلك الاعتقادات وتتنوع الديانات من الهندوسية، وبراهمانية، وبوذية، ومجوسية، ووثنية عرفت تعددا في الآلهة كما كان في الحضارة "المصرية" و "اليونان" من عبدة الشمس والقمر والنار وغيرهم كثر...، بالتوازي مع ظهور الديانات السماوية المشهورة كالتوحيد في "الإسلام" والثنوية عند "اليهود" والتثليث عند "المسيحية".

وكما هو معلوم فإن هذه الديانات المختلفة لم ترضى أن تبقى مسالمة محايدة، لذلك نجد أن الصراع هو ما ميز علاقاتها مع بعضها، محاولا بذلك كل دين السيطرة والهيمنة على بقية الأديان، بل تعدى ذلك مفهوم السيطرة إلى محاولة الإبادة التامة، كما هو الحال في الكثير من مناطق العالم، ونجد هذا الصراع قويا جدا خصوصا بين الديانات السماوية الثلاث الديانة الإسلامية، اليهودية، والنصرانية.

وقد استمر ذلك إلى غاية اللحظة، وهو ما يبرر الصراع الديني الراهني بين الديانات التي أبرزها كما قلنا الديانات السماوية الثلاث، ومن أمثلة ذلك ما يحدث في فلسطين خصوصا، وكذا الصراع بين الوثنيين والموحدين كالصراع في بورما جنوب شرق الهند، وبالتالي هذا الصراع ليس جديدا ولا وليد اللحظة كما أشرنا أيضا، وإنما يعود إلى صراع قديم أبدي، ولا بد أن هذا الصراع اعتمد على آليات ووسائل، ووضع خطط ومشاريع، وهنا بدأ الانتقال من براءة الدين إلى خبث السياسة.

إن لكل مجتمع إستراتيجية معينة في ممارسة الحياة، وهي عبارة عن منظومة متكاملة تمثل الحياة الروحية والعقائدية، والحياة العلمية والعملية، والحياة الاقتصادية والسياسية، وإذا طلب منا تحديد الممكن الأساسي للدين من هذه المنظومة فإننا نقول دون تردد أنه يتجلى في المظاهر الروحية والعقائدية للأفراد، أما إذا أردنا قياس مدى قوة هذا المجتمع من خلال هذه المنظومة أيضا لاخترنا دون تردد السياسة-وهذا رأي خاص- لأن صلاح السياسة يصاحبه صلاح كل المنظومات الأخرى دون استثناء، فتصبح السياسة منبع القوة الأصيل، وبالتالي فهذه الأخيرة -وما دامت هي منبع القوة كما أسلفنا- هي التي كرسنا في كل وقت وحين هذا الصراع الذي أشرنا إليه سابقا، والذي جبلت البشرية عليه أي قانون القوي والضعيف "قانون الغاب".

من خلال ما سبق يتضح أن هناك اختلال في تحديد مصدر الصراع الأصيل، إن كان يعود للدين أم للسياسة، أو فيهما معا، أو في تحديد العلاقة بينهما، أو إمكانية أسبقية أحدها على الآخر.

لذلك فإذا تصفحنا تاريخ المعرفة، لوجدنا أن الفلسفة قد تناولت هذه الإشكالية بإسهاب، ولنا في سيرتها آراء كثيرة، فنجد اختلافات جمة بين الفلاسفة والمفكرين حول أصالة هذا الصراع، فمنهم من يرجعه إلى الدين ومنه من يرجعه إلى السياسة ومنهم من يزوج بينهما، ومنهم من يرفض أحدهما ويعلي الآخر، ومادام أن هذا الموضوع دائم التجدد، فإنه دائما يحمل أفكارا جديدة وتنظيرات عميقة، لذلك فقد ارتأينا أن نقارب هذا الموضوع من زاوية راهنيته الآنية، انطلاقا من فكر فلاسفة أعظم قوة تحكم العالم الآن وهي الولايات المتحدة الأمريكية (USA)، وقد اخترنا لموضوعنا هذا مفكر وفيلسوف أمريكي فذ وهو ذو أصول يهودية، ذاع صيته في ميادين كثيرة من نظريات لغوية إلى مواقف سياسية هزت كيان العام، وغزت مؤلفاته -من كثرتها- كل بقاع الأرض، ألا وهو أفرام نعموش تشومسكي، محاولين

معالجة الإشكالية السابقة من منظاره وعلى حسب منهاجه، ومجزئين ذلك عبر استفهامات ترسم لبحثنا هذا حدودا قد تحده من غياهب الانفلات، وهي كالاتي:

- ما مفهوم السياسة وما مفهوم الدين؟
- ما هي أهم وأشهر مواقف تشومسكي السياسية؟
- وما هو موقفه من الدين؟
- وهل هناك علاقة بينهما من وجهة نظره؟

فرضيات البحث وخطة العمل:

وكفرضيات فأنا أعتقد أنه في الأصول القديمة لهذه الإشكالية المراد معالجتها أن هناك علاقة جد وطيدة بين الحياة الدينية والحياة السياسية للإنسان الأول، كما أفترض أن نجاح السياسة الأمريكية الراهنة ليست منفصلة البتة عن التراث الثقافي والفلسفي والسياسي القديم، منذ قبل اليونان وحتى اليوم، كما أفترض أيضا أن موقف تشومسكي من السياسة الأمريكية لن يكون موقفا مشرفا لها، أما آرائه من الدين والميتافيزيقا فربما يكون متأثرا لدرجة ما بأصوله اليهودية، وهذا ما سنحاول أن نتحقق من صحته في هذا البحث:

ولمقاربة هذا الموضوع وفك بعض خيوطه اقترحنا خطة عمل مؤداها كالتالي:

سنعالج هذه الإشكالية بتقسيمها إلى ثلاثة فصول.

فبعد أن نضع خارطة للمفاهيم نحدد فيها كل من جينالوجيا الدين والسياسة، سنبدأ بمعالجة الفصل الأول وسنقسمه إلى مبحثين أساسيين: يحوي المبحث الأول كرونولوجيا السياسة، ويحوي المبحث الثاني كرونولوجيا الدين، ويعود السبب في ذلك إلى محاولة تقييم موقف تشومسكي إن كان يحمل كل جديد، أم هو تقليد فقط.

أما الفصل الثاني فينقسم أيضا إلى مبحثين رئيسيين، الأول نعاجه فيه إشكالية السياسة الأمريكية الداخلية، والثاني نعاجه فيه إشكالية السياسة الأمريكية الخارجية من منظور نعوم تشومسكي، وهذا حتى نوضح السياسات المنتهجة من قبل أعظم قوة في العالم، ومساها الحقيقي إن كانت ذات طبيعة عامة تكون السياسة فيها متوازية بين الداخل والخارج، أم كانت ذات طبيعة انتهازية تعمل عمل النمل من الخارج إلى الداخل فقط.

أما الفصل الثالث فذلك هو الآخر ينقسم إلى قسمين، المبحث الأول نتناول فيه أهم آراء تشومسكي حول الدين والميتافيزيقا، ونسعى إلى توضيح إن كانت قد أثرت أصوله اليهودية على مواقفه السياسية أم لا، أما الثاني فسنعالج فيه أهم الانتقادات التي وجهت لتشومسكي، سواءً مست هذه الانتقادات مواقفه السياسية أو الدينية أو حتى في مجالات أخرى.

منهج الدراسة :

اقتضت هذه الدراسة المنهج التحليلي والمقارن، لأن العديد من مواطن فكر تشومسكي يبدو عليها التناقض أو التنوع، لذلك اقتضى الأمر الشرح والتبسيط والتبرير كما أن العديد من مواقفه اقتضت تحليلها بغية فهمها وتعليلها، أما المنهج المقارن فقد نعتمد عليه من اجل توضيح ومعرفة الانتقادات التي قدمها تشومسكي لبعض الآراء السائدة في عصره وأيضا لضرورة معرفة ما أضافه وما اختلف فيه من المفكرين وهذا اقتضى مقارنته بهم .

الدراسات السابقة حول الموضوع :

أما ما يخص الدراسات السابقة حول الموضوع، فقد طرحت بعض الدراسات حول تشومسكي لكنها شحيحة، وهي في الغالب منفصلة إن لم نقل كلها، بمعنى أن موضوع السياسة عند تشومسكي دائما ما يطرح منفصلا عن موضوع الدين، كما أن موضوع الدين لم يتم التطرق إليه نهائيا داخل الوطن، ما يجعل هذه الدراسة سباقا في ذلك، وحتى في الوطن

العربي كله فإننا لم نجد إلا دراسة واحدة ووحيدة عن هذا الموضوع وهي الدراسة التي قدمها الدكتور عبد الوهاب المسيري في موسعته الفلسفية: " اليهود واليهودية "، كما لا أعتقد إطلاقاً أن هناك دراسات حاولت الجمع في زاوية واحدة بين الدين والسياسة عند تشومسكي.

أما فيما يخص الانتقادات، فقد وجدنا كتاباً واحداً في الوطن العربي كله يتناول فيه صاحبه تشومسكي من وجهة نقدية خالصة، والكتاب للدكتور علي حرب، وهو تحت عنوان: "أصنام النظرية وأطياف الحرية"، أما الدراسات التي تناولت تشومسكي داخل الجزائر فهي شحيحة أيضاً، وكانت أغلبها تتناول اللغة عند تشومسكي، وهي كالتالي:

1- مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير بجامعة الحاج لخضر باتنة تحت عنوان:

فلسفة العولمة في فكر نعوم تشومسكي، إشراف: أ.د/ زروخي إسماعيل

2- مذكرة التخرج من جامعة السانية بوهران، تحت عنوان: الخطاب الفلسفي والنظرية

التوليدية عند نعوم تشومسكي .

3- مذكرة التخرج من جامعة الجزائر2، قسم علم النفس، تحت عنوان: دراسة نفس

لسانية للغة الشفوية عند الطفل المصاب بالتوحد في إطار نظرية تشومسكي لاكتساب

اللغة- دراسة ميدانية في الوسط العيادي الجزائري.

العوائق والصعوبات:

لقد واجهتنا في بحثنا هذا بعض الصعوبات نذكر منها صعوبتين:

1- الصعوبة الأولى وتتمثل في نقص الدراسات العربية حول هذا الموضوع، إذ أن

أغلب الدراسات حول تشومسكي اهتمت بنظرياته اللغوية.

2- الصعوبة الثانية - وعلى عكس العادة- كثرة المصادر للكاتب نعوم تشومسكي، إذ كتب أكثر من مائة كتاب وأكثر من ألف مقالة، وهذا فيه من الصعوبة بمكان في تحديد واختيار المصادر التي من خلالها يمكن معالجة فكره السياسي والديني.

3- أما الصعوبة الثالثة فتتمثل في أن أغلب المصادر لتشومسكي من كتب ومقالات ووثائق وأشرطة، وحتى الدراسات السابقة التي تناولت فلسفته، هي باللغة الإنجليزية، إذ من الصعوبة وليس من الاستحالة ترجمة هذا الكم الهائل كله، أو بعضه، إلى اللغة الأم، قبل الشروع في إنجاز هذا البحث.

4- أما الصعوبة الرابعة التي وجهتنا لإنجاز هذا البحث أن أغلب كتابات تشومسكي غير اللغوية هي سياسية، أما الآراء الدينية والميتافيزيقية فهي شحيحة للغاية إن لم نقول منعدمة، وفي أغلبيتها الساحقة هي عبارة عن حوارات باللغة الإنجليزية، وهذا ما زاد كثيرا من صعوبة هذا البحث.

دواعي اختيار الموضوع :

هناك عوامل ذاتية وموضوعية أدت بنا إلى اختيار هذا الموضوع أهمها القيمة الفلسفية التي يحتلها تشومسكي في الخطاب الفكري المعاصر سواء كان خطابا سياسيا، أو دينيا، أو لغويا، أو حتى حضاريا ، وما حفزنا أكثر على البحث في فكر تشومسكي هو الموضوعية التي تتسم بها آرائه ، فرغم أنه يهودي أمريكي إلا أن هذا لم يمنعه من توجيه انتقادات لاذعة للتيار الصهيوني الأمريكي وما انجر عن سياسته اللا أخلاقية مع دول ومجتمعات العالم

الضعيفة، و المتوسطة، وحتى مع بعض الدول القوية التي تجافي في سياستها ما تسمو إليه تطلعات الولايات المتحدة من نفوذ ومصالح، كما هو الحال مع الروس، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن الغاية منه تكمن أيضا في جدته وحدائته على مجتمعنا الجزائري خاصة والوطن العربي عامة، وفي مدى ما يمكن أن يفيد براهنيته في تطور أمتنا وتوعية شبابنا حول المخاطر التي تحيط به، وتستغل خيراته وموارده، كما تحد من قدراته وإمكانياته، ونأمل أن يحقق هذا البحث أهدافه وغاياته.

خارطة المفاهيم

سنحاول أن نعرض هنا لمفهوم كل من الدين والميتافيزيقا من بنيتيهما اللغوية والاصطلاحية بما أن الإنسان الأول قد عرف الجانب العقائدي قبل أي شيء آخر، كما لا بد لنا من تناول موضوع السياسة أيضا ما دام موضوعنا يشملهما معا، وذلك من خلال ضبط مفهومها من المعاجم الفلسفية المختلفة.

1 - مفهوم الدين : التعريف الإيمولوجي والتعريف الاصطلاحي

أ- التعريف اللغوي:

يعتبر الدين من الموضوعات التي نالت حظها من البحث والتفكير، ما يفسر تعدد التعاريف والمفاهيم اللغوية والاصطلاحية حوله، التي سنحاول أن نذكر أكثرها شهرة، ومنها:

- لقد عرّف أندري لالاند الدين لغويا في موسعته الفلسفية بالتطرق إلى الاشتقاقات، ومن خلال النظر إلى التعليقات فنجد التالي: "حول الدين Religion. - اشتقاق مجادل فيه. يستخرج معظم القدماء (لاكتانس، أغسطس، سركيوس) الدين Religio من Religare ويرون فيه فكرة الربط: سواء الربط الواجب تجاه بعض الممارسات... إما الربط الجامع بين الناس، أو بين البشر والآلهة، من جهة ثانية يشتق شيشرون الكلمة من Relire، بمعنى تجديد الرؤية بدقة revoir avec soin: ... من البين أن هذا التفسير مفتعل، مع ذلك يسود الاعتقاد اليوم أن الدين متعلق بالربط،..."¹. إذا الملاحظ لدى فلاسفة الغرب ومفكروه القدماء أن مصدر كلمة الدين مأخوذ من كلمة الربط، وفعلا يبدو ذلك سليماً إذ أنه يجعل الإنسان مرتبطاً بأي شيء آخر ارتباطاً تاماً، فيعتقد فيه الصلاح والفلاح والخير العام والأمن العام، وهذا الذي يفسر تعدد الديانات على حسب تعدد الربط.

- لضبط مفهوم الدين أكثر لا بد لنا من التطرق إلى بعض المعاجم العربية المشهورة، فنجد في معجم مقاييس اللغة ما يلي:

1- لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت - باريس، الطبعة الثانية، 2001، ص، ص، 1203، 1204.

"{الدين} الدال والياء والنون أصلٌ واحدٌ إليه يرجع فروعه كلها. وهو جنسٌ من الانقياد والذل. فالدين: الطاعة، يقال دان له يدين ديناً، إذا أصحَبَ وانقاد وطاع. وقومٌ دينٌ، أى مُطيعون منقادون. قال الشاعر:

وكانَ النَّاسُ إِلاَّ نَحْنُ دِيناً (1)

والمدينة كأنها مفعمة، سُميت بذلك لأنها تقام فيها طاعةٌ ذوي الأمر.

والمدينة: الأمة. والعبدُ مدينٌ، كأنهما أدلَّهما العمل.¹، يتضح مبدئياً أن العرب ربطوا الدين لغوياً بالخنوع والخضوع والذل والانقياد، وهو ما لم يكن عند غيرهم، لكن هل يعني ذلك أن الفرد يكون ذليلاً في تداينه مع الأفراد الآخرين؟ أم الذل لديهم مرتبط بقوة أسمى من الإنسان وهو الله؟

لربما يتضح ذلك من خلال مراعاتنا لتعريفات لغوية أخرى، ونأخذ على سبيل المثال ما ورد في القاموس المحيط، فنجد أن للدين اشتقاقات عديدة ومختلفة عند العرب منها: الدين (بفتح الدال) وهو ماله أجل، ويوجد هذا في علاقات الناس ومعنى ذلك حسب ما ورد في الإحالة <نقل الأصمعي عن بعض العرب: إنما فتح دال الدين، لأن صاحبه يعلو المدين>، والدين (بكسر الدال) تتجاوز علاقات الناس إلى معاني أخرى، فقد تعني الجزاء، أو تعني العبادة، والمواظب من الأمطار، والطاعة، والذل، والداء، والحساب، والقهر، والغلبة، والاستعلاء، والسلطان، والملك، والحكم، والسيرة، والتدبير، والتوحيد، واسم لجميع ما بُعِدَ اللهُ عز وجل به، والملة، والورع، والمعصية، وعلى حسب ما ورد في الإحالة نقلا عن الأصمعي أيضا <...وكسر دال الدين لابتنائه على الخضوع...>².

1 - أحمد، أبي الحسين، بن فارس، بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د ط، 1399هـ. 1979م، ص، 319.

2 - محمد، مجد الدين، بن يعقوب، الفيروزآبادي: القاموس المحيط، إيش: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط.8، 2005، ص، 1198.

وبالتالي فهي تخرج إلى ريب أكبر من المُداينة بين الأفراد، أي هي العلاقة التي تجمع العبد بربه، لذلك فهي مبنية على الذل بمعنى تذلل المخلوق لخالقه بغية إرضائه وطمعا في جزائه.

ومن التعريفات التي يمكن أن نستند إليها أيضاً ما تم ذكره في لسان العرب حيث نجد فيه أن الدين هو: "دين *...الديان: الله عز وجل. و الديان: القهار، وقيل: الحاكم والقاضي، وهو فعّال من دان الناس أي قهرهم على الطاعة، يقال: دنتهم فدأوا، أي قهرتهم فأطاعوا، ومنه شعر الأعشى الحرمازي يخاطب سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا سيّد الناس وديان العرب".¹

ومعنى هذا كله أن كلمة الدين عند العرب لم تبارح معنى الطاعة والخنوع لسلطة أعلا تتمثل في الملك أو الحاكم كيفما كان، باطناً وهو الخوف من الجليل أي الله، أو ظاهراً أي الخضوع لأوامر الولاية.

كذلك ما تطرق إليه جميل صليبا في المعجم الفلسفي بقوله: "الدين في اللغة العادة، والحال، والسيرة، والسياسة، والرأي، والحكم، والطاعة والجزاء، ومنه: مالك يوم الدين، وكما تدين تدان".²

أي في التعاريف اللغوية المعاصرة له عدة معاني أو هو يحمل العديد من الصيغ اللغوية المختلفة، لكنها تسير كلها في نفس المسار.

ب- التعريف الاصطلاحي:

- سنعود الآن إلى أندري لالاند، لكن هذه المرة من زاوية أكثر دقة أو بصيغة أدق أكثر عمق، أي سنحاول إدراج المفهوم الاصطلاحي للدين من وجهة نظره هو فنجده يقول: "أ.

1 - ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، طبعة جديدة، 1981، ص، 1467.

2 - صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبنانية، بيروت لبنان، د. ط (دون طبعة)، 1982، ص، 572.

مؤسسة اجتماعية متميزة بوجود إيلاف من الأفراد، المتحدين: 1° بأداء بعض العبادات المنتظمة وباعتماد بعض الصيغ، 2° بالاعتقاد في قيمة مطلقة، لا يمكن وضع شيء آخر في كفة ميزانها، وهو اعتقاد تهدف الجماعة إلى حفظه؛ 3° ينتسب الفرد إلى قوة روحية أرفع من الإنسان، وهذه ينظر إليها إما كقوة منتشرة، وإما كثيرة، وإما وحيدة، هي الله.¹ وهذا يعني أن الدين هو الذي يميز جماعة بشرية عن جماعة أخرى في إطار من التواد والتراحم بأداء فرائض وشرائع في شكل مستمر ووفق ترتيب معلوم، فمعتقدات المجتمع المسيحي وفرائضه غير معتقدات وفرائض المجتمع الإسلامي، وهي غير الهندوسي، أو البوذي، أو الزرادشتي...

ونجد أيضاً من التعاريف الاصطلاحية ما ذهب إليه إبراهيم مذكور بقوله: "(1) مجموعة معتقدات وعبادات مقدمة تؤمن بها جماعة معينة، يسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء، أساسه الوجدان، وللعقل مجال فيه. يقول الجرجاني > : الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول صلى الله عليه وسلم"². وعلى هذا الأساس فالدين عنده ما تعلق بالروح وله تأثير على الجسد، ويربطه العرب بالمنهاج السماوي، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: >أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ.<³، يتضح من ذلك أن استتارة قلب الإنسان -روحه- بالمعارف والمحاسن ومكارم الأخلاق، يؤدي إلى صلاح الجسد من خلال إظهار الطاعة والإذعان لله عز وجل والنجاح في بناء علاقات مع الناس ملؤها الود والتعاطف والتراحم والتلاحم، وعكس ذلك إذا فسدت روحه بالعصيان والنكران، فسد الجسد بإظهار المعاصي

1 - لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، مرجع سبق ذكره (م، س)، ص، 1204.

2 - مذكور، إبراهيم: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، د. ط (دون طبعة)، 1983، ص، 86.

3 - نقلا عن: محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فصل من استبرأ لدينه، شرح وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، 1993، ص، 29.

وفسدت علاقته بمجتمعه، وهذا دليل على الترابط الموجود بين الروح والجسد، فصفاء ونقاء الروح يصلح الجسد، وفساد الروح يفسد الجسد.

2- مفهوم الميتافيزيقا :

إن كلمة ميتافيزيقا تعريب للكلمة اليونانية " تامتاتا فيزيقا " ومعناها ما بعد الطبيعة، وهو الاسم الذي أطلق على كتاب لأرسطو، لوجوده في الترتيب بعد كتاب " الطبيعة " ضمن جملة مؤلفاته التي جمعها أندونقوس الرودوسي Andnomicoos الذي عاش في القرن الأول 01 قبل الميلاد.¹

بالتالي التعريف اللغوي لكلمة ميتافيزيقا يفهم منه أن أرسطو كان يعالج في كتابه هذا الفلسفة الأولى التي تبحث في مبادئ الأشياء، وربما يكون المقصود بما بعد الطبيعة هو مصدر الطبيعة أو أصلها، وسنرى إن كان هذا الرأي موجودا لدى الفلاسفة أم لا، أو إن كان هناك من يرى غير ذلك تماما.

يعتقد كثير من المفكرين أن عبارة " ما بعد الطبيعة " الدالة على هذا العلم الذي هو الفلسفة الأولى - أو الإلهيات كما يسميها ابن سينا (370 - 428هـ) والتي وردت في كتابه الشفاء من قسم الإلهيات - ومعنى ما بعد الطبيعة هو أنها بعدية بالقياس إلينا، فأول ما نشاهد الوجود ونتعرف على أحوال هذا الوجود الطبيعي، وأما الذي يستحق أن يسمى له هذا العلم إذا اعتبر بذاته ، فهو أن يقال له علم ما قبل الطبيعة لأن الأمور المبحوث عنها في هذا العلم هي بالذات وبالعموم قبل الطبيعة".²

إذا خلافا لما يرى العديد من المفكرين والفلاسفة أنها البحث فيما بعد الطبيعة فإن الدكتور محمود يعقوبي يرى أنه من الصحيح أن يقال له البحث فيما قبل الطبيعة، وإذا ما قارنا

1- بدوي، عبد الرحمان : الموسوعة الفلسفية ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والشرح ، مصر ، 1984م ، 493 .

2 - يعقوبي، محمود : خلاصة الميتافيزيقا ، دار الكتاب الحديث ، الجزائر ، 2002 ، ص 11.

التعاريف الشائعة لها كقولنا أنها البحث في العلل الأولى للموجودات، وجدنا أنه يتطابق إلى حد كبير مع ما قدمه الدكتور يعقوبي في تحليله السابق، ويتضح لنا أكثر فأكثر أن هذا التعريف كان لا بد أن يكون ما قبل الطبيعة بدلا من ما بعد الطبيعة.

هذا فيما يخص معنى الميتافيزيقا في العصر اليوناني والعصر الإسلامي مع الفلاسفة المسلمون وسنحاول أن نتناول بقية العصور باختصار شديد، وبما قل ودل.

بالموازاة مع العصر الإسلامي نجد أن الميتافيزيقا في فلسفة العصور الوسطى ربطت ربطا شديدا باللاهوت، و في حوالي القرن 16 م وما تلاه، كان مصطلح الميتافيزيقا يستخدم بنفس معنى مصطلح الانطولوجيا (مبحث الوجود)، وعند ديكارت، ليبنتز، سبينوزا وغيرهم من فلاسفة القرن 17 م، كان مصطلح الميتافيزيقا لا يزال مرتبطا ارتباطا وثيقا بالعلوم الطبيعية والإنسانية، وتحطمت هذه الرابطة في القرن 18 م، فحسب وخاصة على أيدي فلاسفة مثل وولف، وفي الأزمنة الحديثة نشأ فهم للميتافيزيقا على أنها منهج غير جدلي في التفكير، نظرا لما تتميز به من وأحادية الجانب وذاتية المعرفة.¹

لذلك فوضع تعريف أو مفهوم محدد للميتافيزيقا أمر لا طائل منه، ويرجع ذلك لتعدد مباحثها المختلفة، كما يرجع ذلك أيضا إلى التغيرات التي طرأت عليها من عصر إلى آخر.

3- مفهوم السياسة : التعريف الإيمولوجي، والتعريف الاصطلاحي

أ- التعريف اللغوي:

- لقد حدد جميل صليبا في معجمه الفلسفي تعريفها على النحو التالي: " السياسة مصدر ساس، وهي تنظيم أمور الدولة، وتدبير شؤونها. وقد تكون شرعية، أو تكون مدنية. فإذا كانت شرعية كانت أحكامها مستمدة من الدين.

1 - روزنتال (م)، ويودين (ب) : الموسوعة الفلسفية ، ط2 ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت ، 1997م ، ص 514 .

وإذا كانت مدنية كانت قسماً من الحكمة العملية، والحكمة السياسية، أو علم السياسة".¹

نجد لهذا التعريف جانبين، أحدهما يعطي المعنى اللغوي البسيط للسياسة والآخر يتعدى ذلك نوعاً ما، وفي معنى ذلك أن السياسة علم يعنى بشؤون الحكم وتنظيمها، ويخص طبقة معينة من الناس وهم الساسة، ويقوم على مجموعة من التشريعات التي تنظم حياة الأفراد، وهي نوعان تشريعات شرعية مصدرها الديانات، وتشريعات مدنية مصدرها المجتمع.

وإذا أردنا توضيح المعنى اللغوي أكثر عند جميل صليبا لربما وجدنا ذلك في ما يطلق عليه لفظ السياسة، إذ له معاني متعددة وكثيرة، يقول جميل: "وقد يطلق لفظ السياسة على سياسة الرجل نفسه، أو على سياسته دخله وخرجه، أو على سياسة الوالي رعيته. (ابن سينا).

وقد يطلق على كل عمل مبني على تخطيط سابق كسياسة التنمية الاجتماعية، أو سياسة التنمية الاقتصادية، أو سياسة التعليم، وغيرها".²

- والسياسة في القاموس اللغوي هي (Politics – Politique) فن الحكم، أو فن السياسة، أو هي (إدارة الشؤون التي تهم الدولة)،³ بمعنى أنها أحد فنون الإنسانية، وفي كثير من الأحيان ما يرتبط الفن بالخداع، وبالتالي في كثير من الأحيان تكون السياسة هي أحد الخدع التي يمارسها أناس على غيرهم.

1- صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، (م، س)، ص، 679.

2- المرجع السابق، ص، 680.

3- لحام، سعيد محمد، وآخرون: القاموس السياسي ومصطلحات المؤتمرات الدولية، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط.1، 2004، ص، 301.

ب- التعريف الاصطلاحي:

- لقد ذهب أندري لالاند في موسعته الفلسفية إلى تعريف السياسة على النحو التالي:
"ب. خصوصاً (معنى متداول): ما يخص بالدولة والحكومة، في مقابل الوقائع الاقتصادية والقضايا المسمّاة اجتماعية (*sociales)، أو في مقابل العدالة والإرادة، أو الفعاليات الأخرى للحياة المتمدنة، مثل فعاليات الفن، العلم، التعليم، الدفاع الوطني".¹

ومعنى هذا أن السياسة عنده هي جزء من الإطار العام الذي يشكل لنا المجتمع المتمدن، أو المجتمع الحضري، ولكن هي تخص السلطة، أو الطبقة الحاكمة دون غيرها من أواسط المجتمع وطبقاته المختلفة.

- نجد أيضاً ما قال به إبراهيم مذكور في معجمه، حيث عرفها بـ:

" فرع من (العلم المدني) يبحث في أصول الحكم وتنظيم شئون الدولة، أول من عنى به من فلاسفة اليونان أفلاطون في كتابه (الجمهورية)، وأرسطو في كتابه (السياسة) وعنى به فلاسفة الإسلام الفارابي في (المدينة الفاضلة)، ومن المحدثين (هوبز) في كتابه (التنين)، ويعتبر أرسطو واضع الأساس للنظريات الحديثة عن الحكم، وبخاصة في تمييزه بين مختلف صور الحكومة ونظم الدولة".²

وبالتالي فالسياسة هي علم يهتم بالجانب الذي ينظم الحياة الداخلية الاجتماعية، وبمجال إطار العلاقات خارج الدولة، أي أنها علم ينظم شؤون الدولة داخليا وخارجيا.

1- موسوعة لالاند الفلسفية، ص، ص، 993، 994.

2- مذكور، إبراهيم: المعجم الفلسفي، (م، س)، ص، 99.

الفصل الأول:

تاريخ السياسة والدين.

المبحث الأول: كرونولوجيا الدين.

المبحث الثاني: كرونولوجيا السياسة.

الفصل الأول:

لقد عاش الإنسان البدائي في حياة طبيعية بسيطة جدا، حياة كان مأكله فيها خيرات الطبيعة، ومشربه أنهارها، ووديانها، وأمطارها، ولما اقتضت الضرورة والظروف منه أن يبني ويعمر ويترك لمن يأتي خلفه، بدأت التساؤلات ممن أتى خلفه تنهمر عليه من كل حدب وصوب، ولعل أهم سؤال هو:

كيف انتقل الإنسان الأول من حياة الطبيعة إلى حياة المجتمع؟

ولم يكتفي المتسائلون بهذا السؤال فحسب بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بقولهم:

كيف كان الإنسان القديم يعيش وحيدا؟

ومن هنا بدأ الفكر في الاتساع شيئا فشيئا وتعددت الآراء والروايات، حتى وصلتنا اليوم في تعدد مزخرف ليس له مثل، قد كانت الإجابة فيه على السؤالين السالفين أشبه بمن يبحث عن حلقة في فلاة.

وهذا معناه أن السؤال الأول تمحورت الإجابة فيه عن الدولة، وتشكلها، وتطورها، وبمعنى أدق كيفية انتقال الإنسان من الحياة الطبيعية إلى الحياة السياسية والاجتماعية، أما السؤال الثاني فقد كانت تتمحور الإجابة فيه عن معرفة وتشكل العقائد الدينية لدى الإنسان الأول، وهذا الذي يبرر اعتقاد الكثير من الفلاسفة المعاصرين أن الدين هو مجرد تطور لخوف الإنسان من حياة الوحداية التي كان يعيشها قبل تشكل المجتمع.

وبما أننا اخترنا في مذكرتنا هذه مجالين واسعين من مجالات الإنسان، وهما الدين والسياسة، فسنحاول أن نكون جادين في فصلنا هذا لنجيب على هذين السؤالين من خلال عرض مراحل تطور كل واحد منهما.

المبحث الأول:

لقد مثل الدين أحد أهم الأسس التي تكونت منها كل الحضارات خصوصاً القديمة منها، وبما أن الحضارات القديمة خلفت ورائها رصيد زاهر من الآثار المادية، والنظريات الفكرية والمعرفية، فإنها لم تخلوا إطلاقاً من مظاهر الدين، ولم تخلوا نظرياتها تماماً من الميتافيزيقا، الأمر الذي جعل هذا المجال مبحثاً خصباً لكل فيلسوف ومفكر، ما يفسر تعدد النظريات الفلسفية والميتافيزيقية العديدة التي جعلت من الدين أساساً لها.

ومن هنا تأثرت الحضارات الحديثة والمعاصرة بهذه البحوث والنظريات العديدة التي خلفها الفلاسفة القدماء، التي رزقته التنوع والاختلاف الكبيرين، وقد بلغ هذا الاختلاف ذروته وأشدّه في العصر الحديث وكذا راهنية هذا العصر، بحيث تعرض إلى هزات قوية زعزعت علاقته بالسياسة من أصولها، بل تجاوز الحد ذلك إلى مرحلة الرفض والإلحاد.

لذلك فما هو أصل الدين؟ وما هي أهم مراحل تطوره؟

_ تطور الدين : (كرونيولوجيا الدين)

بعد ضبط مفهوم الدين من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية في خارطة المفاهيم، لا بد أن نتطرق الآن إلى تطوره في الحقب التاريخية المختلفة والمتتالية، أو نقول بلفظ أدق، المسار التاريخي للدين والميتافيزيقا عبر الحضارات المختلفة، بدءاً بما قبل اليونان، فاليونان وصولاً إلى راهنية هذا العصر، ومن خلال تعريفات أهم وأشهر الفلاسفة والمفكرين.

بادئ ذي بدء لا بد أن نشير إلى أن البعد التاريخي للدين في أصوله غير واضح، لأن الإنسان الأول لم يترك أدلة واضحة على معتقداته الدينية، إلا أنه ووفق استقراء التاريخ، نجد أن العلماء والمؤرخين اختلفوا بين ديانتين في أسبقية إحداها عن الأخرى، وهما الدين الحنيف أو التوحيد، والديانة الهندوسية.

سنداً بهذه الأخيرة، الهندوسية (بالهندية ديفانيجاري: Devanyjari " हिंदू ") ¹ هي ديانة وثنية غامضة تشكلت قبل 15 قرن قبل الميلاد، ظهرت في الهند واقتبست منها اسمها، وتأتي مباشرة بعد المسيحية والإسلام من حيث عدد المتبعين لها الذي يتجاوز حسب إحصاءات 2005 المليار شخص وهو عدد مهول ما حولها تحتل هذه المكانة، لكن أغلبهم يقطنون الهند وعددهم 900 مليون نسبة 96%.

تملك الهندوسية أكثر من 26 كتابا مقدسا، ولها ثلاثة آلهة "براهما إله الوجود، وفشنو إله الحفظ، وسبعاً إله الهلاك"² و يطلق الهندوسيون عليها تسمية الثالوث المقدس، ويتكون هذا الثالوث من عدد لا يحصى من الآلهة، إذ تكفي عبادة إله واحد عن الآخرين.

هذه الفكرة لربما كانت سببا مباشرا في ظهور فكرة التثليث عند النصرانية "الأب، الإبن، والروح القدس"³ والتي تعتبر أهم معتقد عند المسيحيين، بحيث لا يجب الشك في المعادلة التي تقول حسبهم الواحد (الله) ثلاثة (الأب، الإبن، والروح القدس)، والثلاثة واحد، وإنما يجب التسليم بها كأساس ديني دون التفكير أو التأمل فيه.

ينفق الهندوس على بعض الأفكار رغم تعددها وتنوعها منها: تقديس البقرة تقديسا غريباً فلها الحرية في التنقل والتجول كيفما تشاء بل يمنع ذبحها وأكلها بل وتدفن باحترام، كما يرون في التقسيم الطبقي عدل لأن براهما الإله هو من قسم المجتمع على حسب أعضاء جسده، بل يمنع اختلاط هذه الطبقات بعقد الزواج، وكذا تتناسخ الأرواح ما يفسر تقديسها

1 - <http://www.alagidah.com/vb/showthread.php?t=8178>

2 - المقدسي، الأب صبري: الموجز في المذاهب والأديان، ج1، مطبعة ميديا، أربيل (العراق)، ط1، 2007، ص، ص، 20، 22.

3 - فهد عامر الأحمدى: (الرواية القضائية.. شفرة دافينش)، جريدة الرياض (الإلكترونية)، مؤسسة اليمامة الصحفية، العدد 13530،

تاريخ النشر: 10، يوليو، 2005.

للحيوانات كالفيل والأفعى والفئران، والثالوث المقدس، وقوانين الكارما "أو الجزاء والعقاب" على ما اقترفه الإنسان خلال حياته الدنيوية وقبل الموت.¹

أما الديانة الأخرى فتتمثل في الدين الحنفي أو الموحّد، وهو الاعتقاد الذي يعتقدّه المسلمون قاطبة ما داموا يؤمنون بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، إذ أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام وذريته خلقهم على فطرة التوحيد، (وهي التي تسمى ديانة الصابئة المندائيون²)، وهي الديانة التي تقوم على الخضوع والخنوع وعبادة الله الواحد.

ويتجلى ذلك في الصحف التي أنزلها الله تعالى على آدم عليه السلام وابنه شيث، وهي ما يربو عن 104 صحف حسب ما ورد في حديث أبو ذر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف على شيث خمسين صحيفة.³

الجدير بالذكر هو أن الصابئة المندائيون، قد ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ونجد ذلك في قوله تعالى: >> إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ<<⁴.

كما ورد ذكر الصابئة الحرائيون الذين يعبدون الكواكب أيضاً، كإله القمر "سين" مثلاً، وهم يدينون ديانة وثنية، وقد كان سبب ذلك الظروف التي مرت بها حران*، من احتلال الإسكندر المقدوني لها عام 332 ق.م، وامتزاج ثقافتها الدينية بالفكر الهيليني، وامتزاج هذا الأخير بالفكر الكلداني "عبدة النجوم"، وكذا تأثير الكهانة اليونانية، وتأثرها الكبير بما خلفه

1 - المقدسي، الأب صبري: الموجز في المذاهب والأديان، ص، ص، 32، 34.

2 - <http://ar.wikipedia.org/wiki/شيث>

3 - بن كثير، إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، ج.15، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، جيزة- مصر، ط.1، 1998، ص، 230.

4 - القرآن الكريم: سورة المائدة، الآية، 69.

* حران هي مدينة شهيرة تقع شمال الموصل، وهي الآن تابعة لجنوب تركيا، أنظر:

<http://www.mesopot.com/old/adad9/52.htm>

فيثاغورس من تعاليم كان لها الأثر الكبير على الفكر الديني في هذه المنطقة، وقد تميزت أيضا بظهور المعابد الغريبة المليئة بالأشياء الملفتة، التي من خلالها سعى كهانها كألكساندروس مدعي النبوة، والفيلسوف جمبليكوس، وغيرهم كثير، إلى استقطاب رجال البلاط الإمبراطوري، لتسيير الحكم والتدخل فيه.¹

الجدير بالذكر أيضا، أن الصابئة الحرانيون قد ورد ذكرهم كذلك في القرآن الكريم، في قوله تعالى: >> إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ <<².

أما ديانة الصابئة المندائية فهي طبعا الدين الذي اتبعه الرسل والأنبياء اللاحقون، وعلى رأسهم سيدنا إبراهيم الخليل في قوله تعالى: >> وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ <<³.

وقوله تعالى أيضا: >> مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ <<⁴.

وهو الموقف الذي يتبناه الشهرستاني أيضا، ذلك باعتقاده أن دين الصابئة هو أقدم الأديان، وهو يتفق في موقفه على شيث ابن آدم عليه السلام ويعتقد أنه "عازيمون"، ويضيف له إدريس عليه السلام، ويعتقد أنه "هرمسي"، الذي وضع أسماء البروج والكواكب ورتبها ونظمها، ووضع كل ما يتعلق بها.⁵

1 - الحمد، محمد عبد الحميد: صابئة حران وإخوان الصفا، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ط.1، 1998، ص،ص، 8، 9.

2 - القرآن الكريم: سورة الحج ، الآية، 17.

3 - سورة البقرة، الآية، 135.

4 - سورة آل عمران، الآية، 66.

5 - الشهرستاني، أبي الفتح محمد: الملل والنحل، ج.2، تح: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعود، دار المعرفة ، بيروت- لبنان، ط.3، 1993، ص،ص، 353، 354.

وبالتالي: ووفق تحليل منطقي، يظهر أن التوحيد هو أول دين ظهر في الوجود، ليختلف البشر في معتقداتهم بعد ذلك، ما يفسر تعدد الديانات، ومن ورائها تعدد التفسيرات الميتافيزيقية للوجود والحياة وظواهرها... الخ.

تجدر الإشارة إلى أنه من الصعوبة بمكان أن نتطرق إلى ذكر كل الديانات، أو معظمها، وذلك لتعددتها العميق جداً، كالديانة السمئية، والمجوسية، والديصائية، والمانوية، والمزدكسة،... وغيرها كثير، لذلك سنتطرق إلى أهم المحطات التاريخية للدين، من خلال أهم الحضارات فقط.

بعد توضيح مشكلة بداية الدين كما أعتقد، لا بد أن ننقل إلى ذكر الطابع الديني قبل اليونان، وبضبط عند أشهر وأغمض الحضارات في تلك الفترة، وبالضبط عند حضارتين عريقتين وهما: حضارة ما بين النهرين، والحضارة المصرية.

أ/ حضارة ما بين النهرين:

لا بد أن نبدأ بحضارة ما بين النهرين، وهو ما كان يطلق على الدول التي عرفتها العراق قديماً، وهم السومرية، والأكدية، والأشورية والبابلية، ويرجح عمر هذه الحضارة بـ 6000 سنة قبل الميلاد، كما يرجح أن هذه الحضارة العريقة عرفت الطابع الديني في ما يقارب، الألفية الرابعة قبل الميلاد¹، وهو تاريخ بعيد جداً، ما يرجح أنها أقدم الديانات، وهي قبل الديانة اليهودية بكثير، وقد سبق لنا وأن تطرقنا إلى هذه الديانة المتمثلة في الصابئة بنوعيتها، المندائيون والحرانيون.

وقد كانوا ينزلون على ضفاف نهري دجلة والفرات، من جنوب العراق، بنواحي دست ميسان، والبطائح، والبصرة، والكوفة.²

1 - ديانة بلاد ما بين النهرين/ http://ar.wikipedia.org/wiki/ديانة_بلاد_مابين_النهرين

2 - الحمد، محمد عبد الحميد: صابئة حران والتوحيد الدرزي، دار الطليعة الجديدة، دمشق - سوريا، ط.4، 2011، ص، 21.

ب/ الحضارة الفرعونية أو المصرية:

يجب أن نشير أولاً إلى أصل هذه الحضارة - التي يعود عمرها إلى حوالي 3000 سنة قبل الميلاد¹ - يربطه علماء التاريخ والآثار بتجمع مزيج من البشر، الذين تجمعوا على ضفاف نهر النيل، والقادمين من بلاد النوبة جنوباً، وليبيا غرباً، والفئات السامية شرقاً، والحامية شمالاً، وهي الأطياف التي يتشكل منها شعب مصر، وقد استوطن هؤلاء منطقتين مختلفتين، أولاهما مصر العليا² حالياً (الفيوم، وجنوب أسيوط)، ونتيجة هذا التجمع بدأ ظهور الطابع الاجتماعي والسياسي وبدأت المظاهر الدينية في البروز في هذه المنطقة.

وكما قلنا فقد ظهرت العقائد الدينية، وتعددت الآلهة، إلا أن كل منطقة اضطرت إلى قبول آلهة سيدها الحاكم، وقد مثلت مدينة نخب عاصمة دينية مشتهرة بإلهها "سيت"، أما ثانيهما مصر السفلى والتي تدعى عاصمتها بوتون، وتقع في الواجهة الشمالية البحرية، وقد اشتهر فيها الإله "هوروس"³.

لا بد أن نشير في البداية إلى أن الديانة في الحضارة المصرية تشعبت كثيراً، بحيث ظهرت هنالك العديد من الآلهة، التي أخذت أشكالاً ورموزاً متعددة، وقد كانت في مجملها تأخذ أشكال الحيوانات، أو تمزج بين صفات الإنسان والحيوان.

من هذه الآلهة: إله مدينة بوتون الذي يأخذ شكل ثعبان يستوي على ساق بردي، وشكل التيس إلهاً لمدينة منديس، والإله الكبش حرسافس، وآلهة الحب، التي تتخذ شكل وجه امرأة ذات أذنا بقرة... الخ.⁴

1 - أنظر: مصر_القديمة/ <http://ar.wikipedia.org/wiki/>

2 - الهاشم، دانيا: قصة وتاريخ الحضارات العربية، نشر كريس (Editor Creps)، بيروت، 1999، ص، 27.

3- المرجع نفسه، ص، 28.

4 - ديماس، فرانسوا: آلهة مصر، تر: زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997، ص، ص، 22، 23.

كما أن المصريين جعلوا من فراعنتهم أو حكامهم آلهة أيضاً، واتبعوا كهنتهم الذين حثوهم على طاعة الحاكم، وعلى حسن السلوك، لأنّ ظنهم تمثل في أن فاعل ذلك ثوابه هو الفوز بالخلود، أو الحياة الأبدية.

وقد كان يصطلح على الخلود آن ذاك بالذهاب نحو الشرق، ويمكن أن نقول أن هذه المعتقدات لم تتطلي على كافة الناس، بل هي الأخرى لاقت معارضة شديدة من قبل بعض الفلاسفة آن ذاك.¹

هؤلاء الملوك الذين ظنوا أنهم آلهة، أو على أقل تقدير أبناء الآلهة، هم من وضعوا أسس الحضارة المصرية، من خلال فكرة الخلود، شيّدوا عجائب الدنيا -الأهرامات- وجعلوها قبورا لهم، ووصل أطبائهم لما عجز أطباء العصور الحديثة إلى حل رموزه (التحنيط).

لكن من سلبيات هذه الاعتقادات أنها أثرت على صلاحية الحكم ورشده، حيث تميز هذا الحكم الذي ربط بالحياة الدينية بطابع الاستبداد، والقهر، والظلم.²

رغم هذا التعدد الذي عرفته آلهة مصر، إلا أن مفهوم التوحيد لم يكن بعيدا عن الفكر المصري، وبداياته كانت مع اتصال إبراهيم عليه السلام بهذه الحضارة لَمَّا كانت تعيش مرحلة الرخاء والتطور، كما وضح ذلك التوراة³، إضافة إلى دعوة يوسف عليه السلام المباشرة لله وحده دون سواه، وبعده النبي موسى كليم الله الذي أخرج بني إسرائيل من الاضطهاد الفرعوني.

ويعتقد بعض الباحثين أن فترة النبي موسى عليه السلام صاحبت حكم الملك أخناتون الشاب، الذي رفض حكم الآلهة المتعددة، كما نزع عن نفسه اسم الإله آمون، ليحوّله إلى

1 - الشين، يوسف حامد: الفلسفة المثالية قراءة جديدة لنشأتها وتطورها وغاياتها، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي -ليبيا، ط.1، 1998، ص، 5.

2 - المرجع نفسه، ص، 56.

3 - المرجع نفسه، ص، 59.

خادم الإله آتون، وذلك من خلال التقارب الموجود بين التسابيح التي تركها أخناتون والمزمور الرابع بعد المائة من التوراة.¹

أما الاعتقاد الثاني فتمثل في أن حكم الملك أخناتون الشاب صاحب فترة بعثة النبي يوسف عليه السلام، وهو الأمر المتعارف عليه عند عامة الناس.

كذلك نجد أن الفترة الأولى شهدت أيضا تعديل فكري، خصوصا ما تعلق منها بمفهوم الوصايا الخلقية، أين قدم دريتون Drioton مفهوم <جماعة الآلهة>، والمقصود منها الإله أو حسب ما أجاب دريتون نفسه (الله)، وهو حسب كيس Kees الملك، وهذا هو الذي يعبر عنه الحكماء بمذهب التوحيد، كما ظهر مفهوم آخر للتوحيد لكنه مفهوم محدود نوعا ما، مادام أنه يجمع آلهة متعددة في إلهين، كما هو الحال في الإله "إيزيس"، و"أوزيريس"، لكن ذلك كان في فترة متأخرة حاكت فيها الفكر الإغريقي واليوناني.²

بالتالي يظهر أن الحضارة المصرية تخبط كثيرا في الجانب العقائدي بين مرحلة التوحيد ومحلة التعدد الإلهي والوثنية، لكن ما هيمن عليها كثيرا في تلك الفترة ليس التوحيد وإنما التعدد والوثنية.

ج/ الحضارة اليونانية وربط الدين بالميتافيزيقا:

يجب أن نشير أولا إلى أن الدين في الحضارة اليونانية عرف بعض الانحراف ذلك لظهور الميتافيزيقا وارتباطها به، وسنحاول أن نبرز الطابع الديني في هذه الحضارة، وفي حقيقة الأمر لم تختلف هذه الحضارة كثيرا عن سابقتها، فقد شاع لديهم التعدد في الآلهة.

لكن اختلف اليونان عن غيرهم في تصوير هذه الآلهة وتصورها، فقد كانت عندهم شبيهة بالإنسان في كل شيء، من غذاء ونوم، وتكاثر، وحب، وكره...، وقد تعددت حتى أصبحت

1 - المرجع السابق، ص، ص، 69، 72.

2 - ديماس، فرانسوا: آلهة مصر، (م، س، د)، ص، ص، 150، 151.

في فترة من الفترات لكل قرية أو مدينة إلهها الخاص، ولكل أسرة معبود تشعل له النار التي لا تنطفئ، وتقدم له الهدايا والقربان، لكنهم اجتمعوا على عبادة الإله زيوس إله الآلهة والبشر معا، وقد كانت بداية ذلك كله إثر المخلفات الشعرية الضخمة التي خلفها كل من هوميروس، وهزيود، من خلال الإلياذة والأوديسا، اللتان تقصان أساطير الآلهة، والقصص الخرافية.¹

حتى لا نطيل في عرضنا للتصور الديني في هذه الحضارة العريقة، ارتأينا أن نضع خريطة توضيحية للمعابد الدينية اليونانية القديمة:²



المزارات الدينية الهامة			
♥ أفروديت: إلهة الحب	⚔ أثينا: إلهة الأبطال	☀ هيليوس: إله الشمس	⚔ زيوس: إله السماء
☀ أبولو: إله النور	🌳 ديميتر: آلهة الطبيعة	🏠 هيرا: إلهة البيت	⚔ بوسيدون: إله البحر
🌙 أرتميس: إلهة القمر	🍷 ديونيسوس: إله الخمر	⚔ كايبري: الآلهة الكبيرة	
🏥 أسكليبيوس: إله الطب			

سننتظر الآن إلى تصورات أعظم فلاسفة هذه الحضارة للدين والميتافيزيقي ، وسيكون ذلك انطلاقا من ما ذهب إليه أفلاطون (427 ق.م/347 ق.م)، وأرسطو (384 ق.م/322

1 - الخطيب، محمد: الفكر الإغريقي، دار علاء الدين، دمشق، ط.1، 1999، ص،ص، 29،28.

2 - <http://explorethemed.com/GreekRelAr.asp>

ق.م)، لكن قبل التطرق إلى هذا، لابد أن نتعرض أولاً إلى مميزات التفكير الديني اليوناني قبلهما، حتى نرى إن كانت آرائهما خالصة، أم تأثرت هي الأخرى بما سبقها.

لقد بدأ ارتباط الدين بالميتافيزيقا عند اليونان من خلال ما ذهب إليه الفلاسفة الطبيعيون، لمّا تساءلوا عن أصل الكون المادي، أو بصيغة أدق العنصر المكون له، كما تساءلوا عن القوانين التي تسير وفقها الطبيعة.¹

بمعنى أن الدين في الحضارة اليونانية ارتبط بالفلسفة، وحاول أن يحل المشكلات الفلسفية التي ظهرت في تلك الفترة والتي كانت تتمحور حول أصل الوجود الكوني ومكوناته، وهي البدايات الحقيقية للفكر الديني.

وبناء على ما تقدم فإن أول من بحث في مجال الخلق هو طاليس (564/624 ق.م) لأنه أول من تساءل عن الأصل الذي صدرت عنه جميع الأشياء، ونتيجة بحوثه وتأملاته، استنتج أن عنصر الماء هو أصل جميع الأشياء، واعتقد أن الأرض تطفو وهي ثابتة فوق الماء، مشبها إياها بقطعة من الخشب.²

لقد استمرت آراء طاليس في هذا المجال من خلال تلامذته الذين تبنا نفس المنهج الفلسفي الديني الذي اعتمده على الرغم من أنهم اختلفوا معه.

فهذا تلميذه أنكسمندريس (564/610 ق.م) هو الآخر اعتقد أن ما ذهب إليه أستاذه غير مقنع، فرأى أن المبدأ الأول وأصل جميع الأشياء ليس هو الماء، بل هو عنصر غير محدد وهو اللانهائي، الذي سماه الأبيرون.³

1 - ستيس والتر: تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1984، ص، 29.

2 - الشين، يوسف حامد: الفلسفة المثالية قراءة جديدة لنشأتها وتطورها وغاياتها، (م، س، ذ)، ص، 105.

3 - قرني، عزت: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، جامعة الكويت، الكويت، 1993، ص، 26.

وهذا التصور هو الموجود عند اليونان، حيث كانوا يعتقدون أن اللانهائي هو العنصر الذي تخرج منه جميع الأشياء وتعود إليه، أي هو مبدأ الأشياء ونهايتها.

بعد ذلك جاء أنكسيمانس (525 / 584 ق.م) الذي اهتدى إلا أن هذا الكون وأصل الأشياء جميعا، هو مبدأ لا يكون محدد من حيث الكم، بل هو عنصر كيفي، وبذلك رأى أن أصل الكون هو الهواء، هذا ويشار إلى أنه أدرك وجود الله كخالق لهذا الكون من هواء، وأدرك تفرده ووحدهيته أيما إدراك¹. إذا يمكن أن نقول أن أنكسيمانس كانت له محاولة توفيقية، حيث حاول أن يجمع بين الفكرتين السابقتين، بين الموجود ولا موجود، وحسب الشهرستاني فقد وفق في ذلك.

لقد تغير التفكير الديني والميتافيزيقي عند اليونان مع مجيء فيثاغورس الأيوني الأصل، الذي عاش ما بين (470/580 ق.م)، وقد أسس جماعة دينية، كانت تهدف من خلال نقاء النفس إلى الوصول للحياة الأبدية السعيدة بعد الموت. وقد ظهر تفسيره هو الآخر للعالم والموجودات، بحيث أوله تأويلا رياضيا، لما اعتبر أن العلة الحقيقية لكل الموجودات هو العدد، كما اشتهر أيضا بفكرة التناسب². وكما هو معلوم أن شهرة فيثاغورس ارتبطت إلى حد كبير بالرياضيات فمن الطبيعي أن يرتبط كل فكره بالرياضيات، لذلك كانت تفسيراته في مختلف الميادين تتمتع بالدهاء والصرامة الرياضية، لذلك كانت نظرتة للدين والميتافيزيقي مغايرة تماما لغيره.

ولا ريب أن أول من أثر في الفكر الفلسفي والديني والميتافيزيقي اليوناني هو سقراط (333/470 ق.م) الذي اهتم - كما لاحظ أرسطو- في مباحثه بالأخلاق أكثر من اهتمامه بالطبيعة، إذ ركز بحثه عن الكليات والأوليات، باحثا عن المبادئ والمفاهيم المشتركة بين الناس، لذلك بنى فلسفته عن المعرفة، لأنه كان يرى أن الأخلاق لا يمكن أن تقوم إلا على

1 - الشهرستاني، أبي الفتح محمد: الملل والنحل، ج.2، (م، س، ذ)، ص،ص، 380، 381.

2 - المرجع الأسبق، ص،ص، 31، 32.

المعرفة، ومن خلال العلم بالماهيات، ومن هنا فإن العلم من وجهة نظره يكمن فيما هو كلي لا فيما هو جزئي، طلبا لليقين الذي لا يتأثر باختلاف الناس وتغير العصور.¹

فالمعلوم أن الفكر الفلسفي الخلقى الذي جاء به سقراط ينم على بصيرة نافذة في المجال الديني، وذلك للارتباط الدائم والموجود بين الأخلاق والدين من جهة، والروحانية التي ميزت آراءه من جهة أخرى.

ذلك لأن المعرفة التي يدعو إليها سقراط تتجاوز كل معرفة حسية، هذه المعرفة التي تقوم على ما هو متغير ومتناقض، الأمر الذي يجعلها لا تعطي معرفة يقينية، بمعنى أنه يؤكد على النفس في مقابل البدن، أي أنه يعتقد بوجود الحقائق المطلقة، وبإمكانية معرفتها، من منظار "الفضيلة معرفة"، كما أكد على ضرورة ربط المعرفة بالسلوك الإنساني، أي ربط العلم بالعمل.²

طبعاً لم يتسنى لنا أن نبرز كل الخطوات المؤثرة في تصورات كل من أفلاطون، وأرسطو، لضخامة الإرث الفكري اليوناني كما هو معروف، لذلك سنقتصر على ما قدمناه حتى الآن ونتوجه الآن لهاتين الشخصيتين العظيمتين في الفكر اليوناني.

1- أفلاطون:

لقد ظهر التوجه الديني لدى أفلاطون من خلال نظرية المثل التي هي عبارة عن تفسيرات ميتافيزيقية أكد من خلالها على وجود ماهيات تعبر عن الوجود الحقيقي الذي هو مستقل عن العالم الواقعي الحسي من جهة، ومن جهة أخرى ما قال به سقراط وأشارنا إليه سابقاً.³

1 - الشريف زيتوني: مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، تصدير محمود يعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص، 34.

2 - قرني، عزت: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، (م، س، د)، ص، ص، 134، 135.

3 - المرجع الأسبق، ص، 37.

ما يشتهر عن أفلاطون أنه فرق بين عالمين: عالم المثل وعالم المحسوسات، أما هذا الأخير فهو عالم متغير ظني، عكس الوجود الثابت المطلق المتمثل في عالم المثل، وهو العالم الذي أطلق عليه عالم المعقولات.

تكشفت مثالية أفلاطون في مواقفه الفلسفية المثالية، حيث يعتبر أن ما هو متغير لا يمت بصلة إلى العلم، لذلك جعل من المثل والصور ماهيات ثابتة، وهي التي تطلبها المعرفة العلمية الحقة.¹

بمعنى أن أفلاطون يقول بثنائية الروح والجسد، بما أنه اعتبر أن النفس الإنسانية ذات طبيعة لامادية، وهي مصدر حياة الإنسان، ووجودها سابق على وجود الجسد، فقد كانت تعيش في عالم المثل قبل أن تسجن في الجسد، وحين يموت الإنسان تصعد هذه النفس إلى عالمها الأول الذي تتوق إليه.

لذلك يرى أفلاطون أن المعقولات (المعرفة العقلية)، هي معرفة فطرية، سابقة عن كل تجربة، موجودة في النفس الإنسانية، ولما ارتبطت هذه الأخيرة بالجسد، فقدت ما تعلمته في عالم المثل من حقائق مجردة عن المادة، حقائق كما هي في ذاتها، ومن ذلك فما عليها إلا تذكره عن طريق الإحساس بالمعاني الخاصة، وعن طريق اعتبار أن الأشياء ما هي إلا ظلال وانعكاسات لتلك المثل والحقائق الأزلية الموجودة في عالم المثل، وهذا ما يعرف بنظرية الاستنكار الأفلاطونية.² وهو ما أشرنا إليه سابقاً.

تعد الرياضيات بمثابة البداية الأولى للوصول إلى العلم الحقيقي حسب أفلاطون، ويكون ذلك بارتقاء النفس عن طريقها من عالم المحسوسات إلى عالم المعقولات، ولما يتم هذا

1 - يعقوبي محمود: خلاصة الميتافيزيقا، (م، س، د)، ص، 163.

2 - معروف نايف: الإنسان والعقل، دار سبيل الرشاد، ط.1، بيروت، 1995، ص، ص، 14، 15.

الارتقاء تتم المعرفة الخالصة التي تتمثل في المثل، وهذا هو النسق الفلسفي الأفلاطوني، أو بمعنى آخر هذه هي المرحلة التحضيرية للديالكتيك.¹

لذلك فالرياضيات تحتل مكانة تركيبية في الفكر الأفلاطوني، فهي حلقة الوصل بين العالم المادي الملموس والمحسوس والعالم المثالي كما تصوره أفلاطون، إذن تمثل بذلك جدلية بينهما.

الأمر الذي جعل أفلاطون يقرر وجوب الجدل كشرط لتتحصل المعرفة في العقل الإنساني، وهذا الجدل ينقسم إلى نوعين حسب:

أ- الجدل الصاعد: ويكون بانتقال العقل من مثال إلى مثال إلى أن يصل إلى مثال الخير مستخدماً في ذلك العقل الاستقرائي الكاشف عن العنصر المشترك الذي يجمع بينهما.

ب- الجدل النازل: هذا الجدل يعد قاعدة يرتكز عليها الجدل الصاعد، وهي عملية رجوع العقل من العالم المطلق إلى العالم المحسوس ليدرك الناس المعرفة الحقيقية لقوة العقل وحده بهدف بناء سلسلة المثل دون الاستعانة بالتجربة.²

وبالتالي فالجدل في صورتيه التصاعدية والتنازلية، هو الذي يبحث في ماهية الوجود انطلاقاً من عالم المعقول، وبعد تحصيلها ينير بها عالم المحسوس، إذن فالحقيقة عند أفلاطون هي الحقيقة البسيطة، الخالدة، والمتعالية، والتي لا توجد إلا بذاتها، ولذاتها.

2-أرسطو:

كما أشرنا سابقاً نستطيع القول أن الدين عند أرسطو عرف منحاً مغايراً نوعاً ما، فما سبقه من فلاسفة لم يعطوا لبحوثهم أو تفسيراتهم الدينية أي اسم، لذلك فقد عرف مصطلح

1 - الشريف زيتوني: مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، (م، س، د)، ص، 40.

3 - المرجع نفسه، ص، ص، 41، 42.

الميتافيزيقا (ما بعد الطبيعة) مع أرسطو، من خلال كتاب كتبه بعد كتاب الطبيعة، وأخذت هذه الكلمة معاني عديدة كالعلم بموجودات لا تدرك بواسطة الحواس. مثل الله، النفس...¹

أي أن الوجود الغيبي كما هو متمثل لدينا والمتمثل في الدين تناوله أرسطو من وجهة فلسفية، فاستقر لديه على أنه ما بعد الطبيعة، وهو ما كان له أثر كبير على الفكر الفلسفي اللاحق.

لقد انطلق أرسطو في نظريته الميتافيزيقية على أساس مغاير تماما لما ذهب إليه أستاذه أفلاطون في نظرية المثل، وذلك من خلال نقده لنظرية المثل، بدءاً بالقول بوجود صور كلية في المثل مفارقة للعالم الحسي، لكن يستحيل أن توجد منعزلة عنه، لأن ذلك يجعل الماهيات المفارقة - والتي يعتبرها عللا للحركة والتغير - غير قادرة على أداء هذه الوظيفة، ومن ثمة فهي لا تستطيع أن تقدم أي معرفة عن العالم من جهة، ولا تستطيع أن تفسر وجوده من جهة أخرى.²

وعلى أساس التباين بين المثل والواقع، أو بين الكلي والجزئي، بنى أرسطو نظريته التي تؤكد على حقيقة الكلي كما رأى أفلاطون، ولكن هذا الكلي ما هو إلا الجزئي في صورة كماله، وبذلك يتحدد معنى الوجود الحقيقي الذي يصدر عن ذاته ولا يكون تابعا لأي مصدر خارجي عن العالم الحسي.

إذن الوجود بالنسبة لأرسطو هو الموضوع الأساسي للفلسفة الأولى التي يعرفها بقوله:
"هناك علم يدرس الوجود من حيث هو موجود ولواحقه الأساسية".³

لكن ما هو الوجود الذي تبحثه الفلسفة الأولى؟

1 - يعقوبي محمود: خلاصة الميتافيزيقا، (م، س، ذ)، ص، ص، 11، 13.

2 - ستيس والتر: تاريخ الفلسفة اليونانية، (م، س، ذ)، ص، 220.

3- مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، ص، 44.

لقد أجاب أرسطو على هذا السؤال حينما قال: " لعمرى أن المسألة التي أثرت قديما وستثار أبدا وستبقى موضوع استشارة أي ما هو موجود، إن هي إلا هذه المسألة ما هو الجوهر "، وقد عرف الجوهر، فقال: "... الجوهر يقال على أجسام بسيطة مثل الأرض، النار، الماء، وكل ما يشابه ذلك، وعموما على الأجسام ومكوناتها، بما فيها الحيوانات والكواكب، وأخيرا أجزاء من هذه الأجسام، كل هذه الأشياء تسمى جواهر لأنها لا تحمل على موضوع، ولكن الأشياء تحمل عليها".¹

ومن خلال هذا يرى أرسطو بأن الجوهر هو أحد المقولات التي تشكل الوجود، وذلك لعدم تعرضه للتغير، فهو موجود في الأشياء، والجواهر نجدتها تختلف باختلاف طبيعة الموجودات.

لذلك يرى أن المعرفة الحقيقية هي بحث في العلل الأولى، وقد انتهى إلى القول بأربعة أنواع من العلل : العلة المادية، العلة الصورية، العلة الفاعلة، العلة الغائية، والعلتان الأولى والثانية تمثلان الوجود السكوني للشيء، والثالثة والرابعة تمثلان الوجود الحركي له.²

د/ العصر الوسيط:

لقد أثرت العبقرية اليونانية أيما تأثير على الفكر الديني والفلسفي في العصر الوسيط، سواء كان فكرا مسيحيا أو إسلاميا، وما ميز هذه المرحلة هي تلك الفلسفات التي حاولت تقريب الدين من الفلسفة، أو بمعنى أدق التوفيق بين الدين والعقل.

وكما هو معلوم، فلما جاء الإسلام على يد خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وجد المسلمون في نصوصه الأساسية (القرآن والحديث) منبعا لأفكارهم الفلسفية، وهذا لما لاحظوا أن تعاليمه تحث على إعمال العقل بالتفكير والتدبر في المخلوقات والخالق، ومن

1- المرجع السابق، ص، 45.

2- هويدي، يحي: دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1968، ص، 388.

هنا ظهرت الفرق الفلسفية الإسلامية المختلفة، وظهرت إحدى أقوى وأهم الحضارات في الوجود، فكريا وعلميا وعقائديا، وقد ساهم في هذا التنوع الفكري والثقافي امتداد رقعة هذه الحضارة إثر الفتوحات الإسلامية، ودخول الإرث اليوناني، والفلسفات الشرقية من خلال عمليات الترجمة الواسعة التي قام بها المسلمون خصوصا في عصر الخليفة المأمون.

ولما كان يعيش المسلمون أعظم فتراتهم، كان الغرب يعيش قمة الجهل، والظلام، والجدير بالذكر أن الطابع الديني السماوي منذ ذلك الوقت لم يراوح مكانه، حيث ضل اعتقاد المسلمين بوجود إله واحد (الله عز وجل)، كما تواصل اعتقاد المسيحيين التثليث (الأب، الإبن، الروح القدس)، واليهود بثنائية الله وابنه عزيز، مصداقا لقوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ).¹

ومن هذا كله وجب أن نتطرق فقط لبعض التعريف للدين، أو النظرة الميتافيزيقية عند بعض الفلاسفة المسلمين وغيرهم في هذه الفترة.

د.1/ فلاسفة المسلمين: تجدر الإشارة إلا أن الاعتقاد الديني بوحداية الله لم يتغير عند الفلاسفة المسلمون، وإنما الاختلافات كانت تمس بعض المسائل كالحرية والجزاء والعقاب... وسنأخذ كمثال على ذلك موقف ابن سينا.

ابن سينا: (1038/980م) لقد تأثر ابن سينا في تحليلاته الميتافيزيقية بأرسطو، ولكن بحكم تكوينه الروحي وانتمائه الديني والعقائدي، فقد كان تناوله لهذه المسائل متشعبا من عقيدة التوحيد، وهذا ما ميز نسقه الفلسفي.²

1 - سورة التوبة، الآية، 30.

2- مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، ص، 57.

فابن سينا كواحد من المسلمين لم يفصل مواقفه المختلفة عن الشريعة السمحاء، وبالرغم من التأثير الكبير بالفكر الفلسفي اليوناني الذي عرفته هذه الفترة إلا أنه حافظ على هويته الإسلامية، وهذا طبيعي بالنسبة للطفرة التي كانت تعيشها الحضارة الإسلامية آن ذاك.

ونجد هذا لما تحدث ابن سينا في تعريفه للفلسفة في كتابه "عيون الحكمة"، فقسم الحكمة (الفلسفة) إلى قسمين: حكمة نظرية، وحكمة عملية، وقد ربطهما بشرطين: الشريعة الإلهية من جهة، وبالقدرة والقوة العقلية النظرية والعملية للبشر.¹

وقد تناول ابن سينا بالتحليل الفلسفي مجالات عدة يطول التطرق إليها، لذا سنكتفي بالإشارة إليها.

لقد قسم ابن سينا النفس الإنسانية التي هي جوهر روحاني لا ينتمي إلى هذا العالم المحسوس إلى قوتين في الإنسان العاقل، قوة عاملة تتجه نحو البدن وهي العقل العملي، وقوة عالمة تتجه نحو المعرفة النظرية البحتة وهي العقل النظري.² وهنا يظهر تأثيره الكبير بالفلسفة اليونانية من جهة خصوصا فلسفة أفلاطون من خلال تقسيم الطبقات، وكذلك التأثير بالعقيدة الإسلامية من جهة ثانية.

أما فيما يخص الجانب الوجودي لديه فقد أخذ من أرسطو، حيث يرى بأنه "دراسة الوجود من حيث هو كذلك..." ويمكن النظر إليه من ثلاثة جوانب الوجود المفارق الذي لا تخالطه المادة ولا يوجد في الذهن، والوجود المفارق تصورا، لكن له وجود في الذهن، والوجود المركب من الصورة والهيولة وهو الوجود المادي المحسوس.³ وهنا أيضا يظهر ذلك التأثير الذي تحدثنا عليه سابقا، وهي حالة توفيقية بين الفكر الأرسطي والفكر الإسلامي.

1- بدوي، عبد الرحمن: الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص، ص، 24، 25.

2- معروف، نايف: الإنسان والعقل، (م، س)، ص، ص، 34، 35.

3- أبو ريان، محمد علي: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976، ص، 243.

د.2/ فلسفة الفكر المسيحي: إن الفكر المسيحي غير الفكر الإسلامي، فقد اختلف فلاسفته كثيرا، ولم يسلم حتى الجانب العقائدي الأساسي للمسيحيين (التثليث) من هذا الاختلاف، لكن سنكتفي بتناول شخصية واحدة أساسية وهو "القديس أوغسطين".

القديس أوغسطين: (350م / 430 م)

لقد كانت المرحلة التي جاء فيها القديس أوغسطين تخضع إلى الفكر اللاهوتي باعتباره السبيل الوحيد القادر على تسيير الحياة الإنسانية، لذا حاول القديس أوغسطين عقلنة هذا الفكر، وهذا نلمسه من خلال عبارته "أومن لأتعقل"، ومن هنا بدأت فلسفة أوغسطين الدينية والميتافيزيقية.

لقد تميزت أفكار أوغسطين بالتوحيد بين الفلسفة وعلم اللاهوت، ومع أنه لم يكن يهدف إلى وضع نظرية في المعرفة، إلا أن نظريته المعرفية انطلقت من تبرير وبيان وجود الله "الروح والإدراك العقلي" ولم يخالجه في ذلك شك، ففي اعتقاده أنه ليس جائز للإنسان أن يرتاب فيما تأتي به الحواس من ألوان المعرفة، كما لا يجوز له أن يشك في إدراك العقل لأنه حق وبقين.¹

وهو ما ميز الفكر الوسيطى قاطبة حيث وكما هو معلوم أن هذه الفترة شهدت ثورة شكية في التعاليم والأسس المسيحية في أوروبا، وكان هدف الفلاسفة الكهان هو الدفاع عن الدين المسيحي، الأمر الذي ربط الفكر الأوروبي باللاهوت.

أما بالنسبة للشك؛ فيقول في هذا الصدد: " إن للإنسان فوق الحواس عقلا يمكن به أن يدرك الحقائق المجردة، كقوانين المنطق، وقواعد الخير والجمال، وهذه الحقائق لا تتغير بتغير الأفراد، بل هي واحدة لدى كل من يفكر...".²

1- بدوي عبد الرحمان: فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات ودار القلم، ط.2، الكويت، بيروت، 1979، ص، 22.

2- أمين أحمد: قصة الفلسفة الحديثة، ج.1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1967، ص، 05.

بمعنى أنه يرى أن من يشك يجب أن يكون عالماً بالحقيقة، وهذه الحقيقة من البديهي أنه لم يستمدّها من العالم الخارجي، بل من مصدر آخر وهو الله، وذلك من خلال الإشراقات التي يقذفها الله في قلب المؤمن.

كما يرى أوغسطين أن الإلهام مصدر قوي للمعرفة الصحيحة، ويشترط في بداية ممارسة التحليل بعض المسائل بالبدء بالعقيدة أولاً، وفي هذا يقول: " لا بد لكي نعقل أن نعتقد ¹ ".

أما خلق العالم؛ فيرى أن الله خلقه من عدم، وقد بدأ الخلق المادي حين خلق الزمان، أما الله فهو خارج عن الزمان والمكان، وقد خلق العالم على دهور وليس ستة أيام كما قال موسى عليه السلام، وقوة الله قوة مطلقة تسيطر على الوجود، وهو علة لكل ما يقع في هذا الكون، إلا الشر أو الرذيلة فهي من النفس البشرية لارتباطها بفكرة الخطيئة.²

وهنا تظهر مسيحيته بجلاء، ويظهر تأثيره الكبير بالفكر الديني واللاهوتي الذي انطلق منه للدفاع عن عقيدته المسيحية.

هـ/ في العصر الحديث والمعاصر:

سنسرد هنا لبعض التعريفات الفلسفية للدين والميتافيزيقا على حد سواء، لأهم وأشهر الفلاسفة في العصر الحديث، الذين كان لهم باع طويل وعظيم في الفكر الحديث، ووفق تسلسل منطقي وتاريخي، وذلك للتعدد الرهيب للفلاسفة الغربيين على وجه الخصوص، وسنحاول حصر هذا الكم الهائل انطلاقاً من أبو الفلسفة الحديثة روني ديكارت.

روني ديكارت: (1596م / 1656)

لقد تجلّى الطابع الديني لديكارت من خلال فلسفته، ذلك لما جعل من الميتافيزيقا بمثابة الجذور في شجرة الفلسفة فقال: "الفلسفة كلها بمثابة شجرة جذورها الميتافيزيقا، جذعها العلم

1- المرجع نفسه، ص، 07.

2- المرجع السابق، ص، 08.

الطبيعي وأغصانها باقي العلوم، وهذه ترجع إلى ثلاثة علوم كبرى أعني: الطب، الميكانيكا، الأخلاق...¹.

إن الميتافيزيقا الديكارتية تعني مبادئ المعرفة التي منها تفسير أهم صفات الإله وروحانية نفوسنا وجميع المعاني الواضحة المتميزة الموجودة فينا، وربما كان يهدف ديكارت من وراء هذا إلى توحيد العلوم المختلفة ليجعل لها أصل تعود إليه ولا تخرج عنه، وهو أصل ديني، بمعنى إثبات أن مصدر المعارف المختلفة يعود إلى الله الذي زود العقل البشري بهذه المعارف، لذلك فالمعرفة قبلية أو فطرية وهو موقف ديكارت من المعرفة.

وهو ما أكد عليه (Jean Cassin Billier) لما رأى أن ديكارت يعتبر من ممثلي العقلية الميتافيزيقية، وذلك من خلال نقطتين أساسيتين:

- 1- التأكيد على فلسفته العقلية، تقوم على مبادئ قبلية مثل (الشكل، العدد، الحركة).
 - 2- الالتجاء إلى الله لضمان صدق هذه الأفكار في العالم الحسي.²
- وبالتالي الأكيد أن الفلسفة الديكارتية هي فلسفة دينية، وإن تم الاختلاف بين المفكرين والفلاسفة حول جدتها من عدم ذلك، إلا أنها وفي الغالب تجمع بين الجدة والتجديد، وهو الذي نلمسه في ما عرضه د: إبراهيم مصطفى إبراهيم في كتابه الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، لما تطرق لموقف د: يوسف كرم حين قال:
- " وتظهر أمهات المذاهب الحديثة، في مقدمتها مذهب ديكارت الذي يزعم إقامة فلسفة مسيحية (نصرانية) ويستمد عناصرها من القديس أوغسطين والقديس أنسلم ودونس سكوت، ولكنه يبث فيها روحا مغايرة للدين".³

ديفيد هيوم: (1711 / 1776)

1- مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، ص، 77.

2 - Jean - Cassin Billier: Kant et le kantisme, armondcalin, masson, Paris, 1998, P, 07.

3 - مصطفى، إبراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء، إسكندرية، 2000، ص، 68.

يقف هيوم مثله مثل معظم الفلاسفة التجريبيين موقف سلبي من الدين، حيث اعتبر الميتافيزيقا أفكارا لا يرجى منها القليل ولا الكثير، ويؤكد على موقفه تجاه الميتافيزيقا من خلال مقولته الشهيرة: " إذا تناولنا أي كتاب استدلالا مجردا يتعلق بالكم أو العدد؟ لا هل يحتوي استدلالا تجريبيا يتعلق بأمر الواقع والوجود المحسوس؟ لا ادفعه إذن في النار لأنه لا يحتوي سوى السفسطة والاضطراب ".¹

وبالتالي موقف دافيد هيوم والذي هو موقف معظم الفلاسفة الحسيين، هو موقف رفض للميتافيزيقا، وقد أثر هذا الموقف على العديد من التوجهات الفلسفية التي تلت ذلك، كما هو الحال بالنسبة للماديين أو الوضعيين.

ولا يعني موقفه هذا من الدين أنه ينكر وجود الله، بل انتهى هيوم في بحثه إلى الشك، فلم يبرهن على وجود الله كما لم يستطع إنكاره، لذلك قال عبارته الشهيرة: "إن وجود الله لا نصل إليه لا بخبرة حسية ولا باستدلال".²

جورج ادوارد مور: (1873/1958)

لعل التجريبية الحديثة أثرت بشكل بالغ في ما لحقها من فلسفات، حيث أخذت التحليلية تقريبا نفس موقف التجريبية من الدين والميتافيزيقا، وقبل أن نعرض لموقف مور سنوضح لماذا اخترناه دون غيره من الفلاسفة التحليليين.

يرجع المؤرخون البدايات الأولى للفلسفة الواقعية الجديدة والتحليلية إلى "مور" حيث يرى "تسالزورث" أن هذه الحركة تعود إلى ظهور المقال الذي كتبه مور حول تنفيذ المثالية 1903، والذي ركز نشاطه الفلسفي فيه حول الكشف عن المغالطات والأخطاء التي وقعت

1- فهمي، زيدان محمود: كانط وفلسفته النظرية، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، 2004، ص، 46.

2- المرجع الأسبق، ص، ص، 350، 351.

فيه الهيغلية والمثالية الجديدة. وسنأخذ قوله هذا نوضح به موقفه من الأخلاق ومن ورائها الدين والميتافيزيقا:

« لقد بدا لي انه في الأخلاق وحتى في الدراسات الفلسفية أن الصعوبات والاعتراضات والاختلافات في تاريخ الفلسفة يعود إلى سبب بسيط وهي محاولة تقديم إجابات لتساؤلات دون اكتشاف بالضبط ما هو السؤال الذي نرغب في الإجابة عليه، فأنا لا أعلم إلى ما تقودنا إليه هذه الأخطاء، وكان بالأحرى للفلاسفة أن يحددوا بالضبط الأسئلة قبل الإجابة عنها، فلو قام الفلاسفة بهذا العمل فإن الكثير من الصعوبات والاختلافات سوف تختفي»¹.

إنه يؤكد على أن الفلاسفة منذ القدم يطرحون مشكلات فلسفية زائفة لأنها تنطلق من أسئلة غير مضبوطة، وإذا أردنا أن نقدم إجابات سليمة ودقيقة فعلينا أولاً أن نطرح أسئلة دقيقة ذات معنى، بمعنى أسئلة يمكن التحقق منها تجريبياً، ويرى "مور" كما يرى فلاسفة التحليل أن المنهج التحليلي هو الحل لكل هذه المشكلات الزائفة، فهذه المشكلات الميتافيزيقية نشأت من أخطاء منطقية في فهم العبارات اللغوية، وبالتالي فالمشكلة هي مشكلة لغة.

المبحث الثاني:

1- Moore, George Edward: Principia ethica, cambridge at the universisty press,1922, preface.

تعتبر السياسة أحد أهم المجالات التي تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى، مادام أنها ممارسة قبل أن تكون علما، لذلك فقد عالجها الإنسان الأول بقصد أو بغير قصد من خلال ظروف الحياة التي كانت تعاسره فتقوى أو يقوى عليها، وهذا الذي جعل من المهتمين بالمعرفة والعلم يتسابقون حول دراسة مبادئها، وأسسها، وكذا مقوماتها المختلفة، ومجالاتها، فحددوا لها أطرا تتمحور حولها، ومادام أن البحوث امتدت وتواصلت لسنوات وسنوات كان لا بد أن يكون الاختلاف والتعارض والتناقض السمة التي ميزت هذه البحوث. ومن هذا وذاك بدأ هذا العلم القديم قدم الإنسان ينمو ويتطور إلى أن اكتملت صورته التي لدينا في العصر الحديث، وحتى لا نكون مجحفين في حق كل مجتهد فإننا نستدل بما قاله رب العزة في محكم تنزيله: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"¹.

لذلك فمادامت الحضارات تنمو وتتطور فإن هذا العلم هو الآخر سينمو ويتطور، وهو مصير باقي العلوم، ومن هنا سنتساءل:

ما أصل السياسة؟ وما هي أهم مراحل تطورها؟ وهل حافظت السياسة على علاقتها المثينة بالدين، أم أنها اتخذت منحى مغاير؟

__ تطور السياسة: (كرونيولوجيا السياسة)

لقد ارتبطت السياسة ارتباطا وثيقا ومنذ القدم بالتجمعات السكانية، وقد حاولت على مر العصور تنظيم حياة الناس كما لاحظنا سابقا، وهي تختص بالطبقة الحاكمة، أو طبقة معينة دون غيرها، لذلك فقد ظهر نوعان من الحكم عبر التاريخ:

1 - القرآن الكريم: سورة الإسراء، الآية، 85.

أ- الحكم الفردي:

وهو الذي تكون فيه السلطة في يد رجل واحد كالحكم الثيوقراطي الذي هو من أقدم أنظمة الحكم، وهو الذي يجعل من الدين أساسا له، والذي انشق منه الحكم الملكي الذي يكون فيه الملك هو صاحب جميع السلطات في الدولة، هو يصدر القوانين ويفسرها ويقوم بتنفيذها، وللملكية المطلقة أمثلة في التاريخ ومن أشهرها المملكة الإنجليزية أو المملكة الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر الذي أعلن (الدولة هي أنا)، وما دام أن الحكم الثيوقراطي يحتوي الحكم الملكي المطلق، سنحاول في هذا المبحث أن نعرض لهما معا وفي شكل متصل.

الحكم الثيوقراطي والحكم الملكي المطلق:

الحكم الثيوقراطي هو الحكم الإلهي المجسد في الأرض، فالله هو الملك المطلق، أو مالك الملك، كما وصف نفسه عز وجل لما قال في محكم تنزيله: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)¹.

وبالتالي فالملك بيد الله، هو الذي يحدد من هو الملك أو الحاكم وفق إرادته الأزلية²، لذلك فالحكم الثيوقراطي هو أقدم أنواع الحكم مادام أن الله تعالى أتى الكثير من الأنبياء الرسل والناس الملك، بمعنى أن الإنسان هو مجرد خليفة لله في الأرض، ومن أمثلة الملوك الرسل من القرآن الكريم، سيدنا داوود وسيدنا سليمان عليهما السلام، مصداقا لقوله عز وجل: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)³، ومن البشر مثلا نجد طالوت الذي منحه الله ملك بني إسرائيل، وذلك في قوله تعالى: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ

1 - سورة آل عمران، الآية، 26.

2 - شرف، محمد جلال، ومحمد، علي عبد المعطي: الفكر السياسي في الإسلام شخصيات ومذاهب، دار الجامعات المصرية، إسكندرية، 1978، ص، 66.

3 - سورة ص، الآية، 35.

مُلكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ¹.

وحتى النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان حاكما رغم أنه لم يختار الملك، فكل التشريعات والأوامر والنواهي، والقرارات التي اتخذتها فترة نبوته تعود إليه سواءً بالوحي أو باختياره، والدليل على ذلك كثير، فوجد قول الله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)².

لكن الحكم الثيوقراطي لم يحافظ على نقائه، لأنه تعرض في كثير من الأحيان إلى التزييف والتحريف، أو طغيان الملوك الذين ألَّهوا أنفسهم بدل الله تعالى، كما كان الحال في الحضارات القديمة خصوصا الحضارة الفرعونية، أو كما حدث أيضا في الفكر المسيحي بظهور الإرث اللاهوتي أو فكرة التفويض الإلهي (الحاكم مفوض من الله)، حيث يكون الملك هو الحاكم المطلق الاستبدادي، وقد اشتهر هذا الحكم كثيرا في فترات العصور الوسطى.

وكما أسلفنا الذكر فإن هذا الحكم اشتهر في المملكة الإنجليزية، وربما اخترنا هذه المملكة لأنها شهدت صراعات عديدة خصوصا خلال القرن السابع عشر، وربما لأن أهم النظريات السياسية ظهرت فيها، والمقصود هنا طبعاً نظرية العقد الاجتماعي.

بيد أن هذه النظرية التي نسبت إلى الفلاسفة الإنجليز، كان لها هي الأخرى -كأغلب النظريات الفلسفية- أصل ومنبع يوناني، ونجد هذا في الإشارات التي أشار له السفسطائيون في أفكارهم حول الدولة ونشأتها، فقد جعلوا السياسة خارج الطبيعة، فإنما هي حسبهم اتفاق وتعاقد بين الناس، وهو الرأي الذي قال به جلوكون حين زعم أن الفرد ظالم بطبعه، ما دفعه

1 - سورة البقرة، الآية، 248.

2 - سورة النساء، الآية، 105.

إلى التوصل لعقد هدنة أو عقد مع غيره، وهذا ما تبناه الأبيقوريون أيضا لما اعتقدوا أن هناك اتفاق جرى بين الفرد والحاكم من أجل الطاعة مقابل الأمن والأمان.¹

وكما أشرنا إذن؛ فإن هذا الصراع الذي ظهر في المملكة الإنجليزية ولد مناخا ملائما لظهور عدة نظريات سياسية لفلاسفة إنجليز وغيرهم، ولعلنا سنتناول هنا أبرز الشخصيات الفلسفية المتقابلة، والتي كان لها أثر بالغ في المسار السياسي الأوربي على الخصوص، والعالمية بصفة أشمل، ومن هؤلاء:

1-توماس هوبز: (1679/1558م)

لقد تأثرت أوروبا كثيرا بالحكم الثيوقراطي وبأشكاله المختلفة، حتى أصبحت بعض النداءات تتصاعد ضد هذا الحكم، الذي يرى أن الملك أو الحاكم هو المسئول الوحيد أمام الله وحده، دون أن يكون مسئولا على رعاياه الذين حكمهم إبان حكمه الدنيوي، ولعل أبرز رواد هذه النداءات ما كان ينادي به توماس هوبز، الذي قامت ثورته في أصولها على فكرة التفويض الإلهي أولا، التي خولت للحاكم أن يعبث في حكمه كما يشاء، ووفق ما يرى لأنه مخول من عند الله تعالى، وثانيا الانفجار في وجه التراث اليوناني المتمثل في نظرة أرسطو لتطور الدولة انطلاقا من الأسرة، وكذا فكرته التي ترى أن الإنسان حيوان سياسي، وتحول هذه الفكرة إلى رؤية هوبزية ترى أن الدولة حيوان صناعي، أنشأه وأقامه الإنسان بمحاكاته للطبيعة في مقابل الطبيعة التي خلقها وأبدعها الله تعالى، وبالتالي فاللا دولة التي تعني الفوضى إنما هي طبيعة عند هوبز، والدولة هي صناعة.²

كما تفنن توماس هوبز في إبداعاته الفلسفية لما أنشأ نظرية فلسفية سياسية قوية، كانت لها هزات ارتدادية في الفكر الأوربي والعالمية على حد سواء، إذ سرعان ما تبناها الكثير من

1 - إسماعيل، فضل الله محمد: الأصول اليونانية للفكر الغربي الحديث، بستان المعرفة، ط.1، 2001، ص، ص، 17، 18.

2 - إمام، إمام عبد الفتاح: الأخلاق..والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001، ص، ص، 266، 268.

الفلاسفة رغم اختلاف آرائهم، وهي التوجهات الفلسفية التي عرفت بنظرية العقد الاجتماعي، وهنا ظهر معدن توماس هوبز السياسي الذي - إن صح القول - جمع فيه بين الأضداد، أو المتناقضات، حيث كانت أولى ثوراته كما أشرنا آنفاً على الحكم الثيوقراطي المطلق، الذي يتخذ من الدين أساساً، كما ثبت بشدة بالغة في نظريته الحكم المطلق، ما يضعنا هذا في حيرة ربما، وهي أنه لما يكون الحكم مطلقاً فما الفرق بين أن يكون ثيوقراطياً أم لا؟

ولتوضيح الأمر سنتناول وبشكل مقتضب أهم محاور نظرية توماس هوبز السياسية، لقد رأى هوبز أن الدولة هي نتاج الانتقال من مرحلة الحياة الطبيعية إلى الحياة الاجتماعية، حيث تشكلت إثر عقد اجتماعي بين الناس تنازلوا بموجبه على حقوقهم الطبيعية، التي تكفلها الطبيعة لهم، وهذا التنازل جاء إثر حالة الصراع الدائم بينهم بسبب تضارب حقوقهم الطبيعية، ولقد حدد هوبز لهذا الصراع عوامل ساعدت في نشوئه نختصرها كالتالي:

_ المساواة في القدرات: وهنا جعل هوبز من القدرات العقلية للضعفاء جسدياً و القدرات الجسمية للأقوياء جسدياً متساوية، وهذا ما يعزز الصراع بينهم ويؤججه.¹

- المساواة في الأمل وهذا الذي يجعل الناس متساوون في إمكانية تحقيق أهدافهم.
- الأغراض المتضاربة التي حصرها هوبز في الرغبة المتساوية في شيء ما، ما يفاقم درجة الصراع أكثر.

وقد أضاف هوبز إلى هذه العوامل عامل المنافسة، وانعدام الثقة، وهذا هو ما يجعل الناس دائمي القلق حول المحافظة على حياتهم، ما استدعى منهم حسب هوبز التنازل عن حق الدفاع عن أنفسهم في عقد اجتماعي أول، يتنازلون بموجبه على كامل حقوقهم الطبيعية لحاكم قوي مطلق الحكم، يحميهم ويدافع عنهم ويحفظ حياتهم، ويسقط هذا العقد حسب هوبز

1 - المرجع نفسه، ص، 270.

إذا عجز هذا الحاكم عن أداء دوره الأساسي وهو المحافظة على الأمن والأمان داخل أوساط المجتمع.¹

ومما سبق يتضح لنا الفرق بجلاء بين الحكم الثيوقراطي، والحكم المطلق المبني على التعاقد، وهو أن النوع الأول لا يحفظ أهم شرط وضعه هوبز وهو المحافظة على حياة الناس، كما لا يهتم بهم، بل يهتم بنفسه وبمصالحه فقط، ولا يمكن عزله أو الثورة عليه، لأنه مفوض من الله تعالى، بينما النوع الثاني يتوفر فيه أهم شرط وهو المحافظة على حياة الأفراد، وتوفير الأمن والأمان لهم، كما يحتفظ الناس بحق الثورة على الحاكم إن ضعف واستكان عن الذود عن حقوقهم.

لكن لا بد أن نشير إلى أن موقف توماس هوبز في هذه النظرية لاقى معارضة شديدة من بعض فلاسفة عصره، ومن أبرز هؤلاء ما كتبه السير روبرت فيلمر * Sir Robert Filmer في كتابه الأبوة Patircha، من حق مطلق مقدس للملك الحاكم المفوض من قبل الله تعالى، في حكم رعاياه كيفما يشاء، ووفق أي إرادة قانونية يرى، لأن الدولة حسب ما هي إلا امتداد طبيعي وتسلسل إلهي لأسرة اختارها الله تعالى وفق إرادته الأزلية، وما على المحكوم إلا الطاعة العمياء، والخنوع المطلق.²

2- ديفيد هيوم:

ومن الفلاسفة الذين تأثروا أيضا بنظرية العقد الاجتماعي ديفيد هيوم، بحيث شهدت الفترة التي عايشها صراع قوي، وقد مثل أطراف هذا الصراع حزبين أحدهما يدعم الملك لرعاية

1 - المرجع السابق، ص، ص، 271، 272.

* سياسي إنجليزي (ت1653)، من أنصار النظام الملكي، عرف بمؤلفه "باترياركا" أو "السلطة الطبيعية للملك"، دافع فيه عن الحق الإلهي للملك، وهاجم نظرية العقد الاجتماعي كأساس لنشأة الجماعات السياسية. أنظر:

فيلمر، سير-روبرت/ <http://ency.kacemb.com>

2 - مصطفى، إبراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، (م، س)، ص، 282.

مصالحكم طبعا، وهو حزب المحافظين، والثاني هو الحزب الثائر على الملك والذي يطالب بمعيشة كريمة أو بحقوقهم على الأقل، ولا بد أن يكون طبقة الفقراء والعمال والضعفاء.¹

لقد استغل هيوم هذا الصراع لبناء نظرية سياسية صب فيها قوالبه الفكرية السياسية، وقد اشتهر هيوم بنظريته التي فحواها أن الناس تعاقدوا بينهم ونصبوا حاكما يحفظ مصالحهم، واحتفظوا بحق عزله، لكن هيوم لم يحافظ على مبدأ نظريته هذه، إذ إثر الصراع السالف الذكر فقد كان ميالا أشد الميل للحزب المحافظ الذي يرى أن الملك هو الحاكم الشرعي المفوض من قبل الله تعالى، وأن كلما يصدر عن الحاكم وجماعته إنما هو بإرادة الله تعالى ومشينته، حتى ولو كانت أفعالهم أفعالا إجرامية من سرقة وقتل ونهب،² بمعنى أن هيوم جعل الأساس التبريري المتين لطغيان الملك وجماعته الحاكمة، أي أن الحكم هنا يخضع للمطلقة التامة التي مصدرها المنهج الإلهي، الذي حتى شره خير حسب هيوم، والذي بدوره يجعل من الشر الملكي كله مرصعا بالخنوع والخضوع التام من الطبقة المحكومة، بمعنى تقبل الشر على أنه خير، والملاحظ أيضا أن هذا الفكر كان قد سيطر على كامل أطياف الفكر الأوربي في فترة العصور الوسطى، وبمفهوم أدق أن الملكية المطلقة في أغلبها قد استمدت قوتها من الدين (حكومات ثيوقراطية)، لذلك فهي حكومات سعيدة دائما على حد تعبير مكيافيللي،³ سواءً كان حكمها عادلا، أو حتى كان استبدادي ظالما.

إذن فالمنتبع لهذه الأحداث السياسية الأوربية في العصر الوسيط يجد أن بوادر الثورة على الحكم الديني الثيوقراطي بدأت تتضح أكثر في الفكر السياسي الإنجليزي، خصوصا مع توماس هوبز والفلاسفة الذين عاصروه، حيث عرفت نهاية الفترة الوسيطية ومطلع العصر الحديث بدايات الثورة ضد الاتفاق الموجود بين الكنيسة والملك، فالثورة على السلطة الدينية التي تفتح المجال الواسع أمام أي حاكم ليفعل ما يشاء، وضد الرؤيا التي ترى أن أفعال

1 - المرجع السابق، ص، ص، 344، 345.

2 - المرجع نفسه، ص، ص، 346، 347.

3 - مكيافيللي، نيقولا: كتاب الأمير، تر. أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، دون ط، 2004، ص، 63.

الملك أو الحاكم مباركة بركة تفويض الله تعالى له، ساهمت وبشكل كبير في تحرر الفكر الأوربي، كما أدى ظهور المذاهب الفلسفية الكبرى في العصر الحديث إلى نقل أوروبا لفترة جديدة.

وإثر هذه الحركات والتموجات الفكرية والفلسفية تصاعدت ثورات في أثواب مختلفة الأشكال والألوان صبت جام غضبها على الدين، معتقدة التخلف السياسي فيه، لذلك ظهرت الدعوات من كل أنحاء أوروبا ممجدة الدين الطبيعي أو القانون الطبيعي، أو فكرة تأليه المجتمع بدل الله، وهذا طبعاً راجع للدور السلبي الذي كانت الكنيسة تلعبه، وكذلك على الحكومات والسلطات الفاسدة سياسياً، والفاشلة اقتصادياً، واجتماعياً، وثقافياً، ولعل أبرزها كان في فرنسا-ثورة العمال في فرنسا (1789 / 1799)- وإنجلترا، حتى شاعت بين الناس المقولة التي تردد (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)¹، وذلك لوجود اتفاق بين الملوك ورهبان الكنائس، وربما كان هذا هو الذي أدى إلى الريعان والازدهار الذي عرفته أوروبا، فالعالم بعد ذلك ككل.

الملكية المقيدة (الملكية الدستورية):

هي تلك المملكة التي يقودها الدستور، وهي تطور للملكية المطلقة، فقد يضطر الملك المطلق الحكم أن يتنازل للشعب عن كثير من الحقوق طبقاً لدستور ما، أو يتنازل عنها اختياراً.²

إذا فالحكم الملكي هو حكم فرد واحد، فإما يكون مطلقاً فتكون كل مجالات وقطاعات الدولة تخضع لأمر الملك دون سواه، كالمملكة الهاشمية بالأردن مثلاً، أو مملكة آل سعود بالسعودية... وإما أن تخضع هذه المملكة لدستور ينظم مسار حياتها، ويحد من سلطة الملك

1 - <http://alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&contentID=28#>

2 - <http://ar.wikipedia.org/wiki/ملكية>

المطلقة، ومن أمثلة ذلك نجد المملكة المتحدة بإنجلترا مثلا، والتي تحكمها حاليا الملكة إليزابيث الأولى، وحكمها صوري فقط، إذ تتركز السلطة في يد البرلمان أو مجلس الشيوخ وعلى رأسهم رئيس الوزراء ديفيد كاميرون، ونجد كذلك المملكة الإسبانية التي يحكمها خوان كارلوس الأول، وحكمه كذلك يخضع لسلطة الدستور بعد أن تطور من الحكم المطلق، ونجد كذلك أن السلطة هي سلطة البرلمان، على رأسه رئيس الوزراء المنتخب، وهو ماريانو راخوي.

كذلك توجد أنواع أخرى من الحكم الفردي التي ظهرت بعد الحكم الملكي، كالسلطة الأوتوقراطية (بالإنجليزية: Autocracy) وتدل على السلطة المطلقة، وكلمة Autocrat تعني الحكم الفردي الذي يكون طاغوي أو استبدادي تعسفي،¹ أي أن السلطة السياسية تكون بيد شخص واحد بالتعيين لا بالانتخاب.

وهذا النوع هو كذلك من الأنواع التي ظهرت قديما، ولكنه اشتهر بشدة في العصور اللاحقة، وقد ترجم معنى أوتوقراطي إلى العربية لمعنى استبدادي، إذ يغتصب الحاكم في هذا النوع السلطة بالقوة ويفرض ويبسط سيطرته على كل أطرافها، فيسخر كل قطاعات وأطراف الدولة لخدمة أغراضه الشخصية، ويهمل الشعب.²

من أمثله نجد ما كان يحدث في المماليك والإمارات الكثيرة التي كانت في إيطاليا في الفترة الممتدة بين القرن 14 إلى القرن 16م، خصوصا ما قام به "أجاثوكل الصقلي" في اغتصابه لحكم "سرا كوزا" بالقوة، وهو الذي جاء من أدنى طبقات المجتمع، وتدرج في مراتب الجيش حتى صار قائدا، ثم نصّب نفسه أميرا بعد أن استدعى مجلس الشيوخ إلى اجتماع، وقام باغتيال كل من حضره، ودام حكمه طويلا بعد أن غزى بجيوشه قرطاجنة وأجبرهم على ترك حكم صقلية له.³

1- لحام، سعيد محمد، وآخرون: القاموس السياسي ومصطلحات المؤتمرات الدولية، (م، س)، ص، 35.

2 - <http://ar.wikipedia.org/wiki/أوتوقراطية>

3 - مكيافيللي، نيقولا: كتاب الأمير، تر. أكرم مؤمن، (م، س)، ص، 51، 52.

كما يطلق لفظ أوتوقراطي أيضا في بعض الأحيان على الحكم الدكتاتوري الذي أشتهر خصوصا في العصور الحديثة، على الرغم من وجود اختلافات في المعنى بينهما، (والحكم الدكتاتوري هو: مأخوذ من الكلمة الإنجليزية "Dictator" التي تعني استبدادي، مطلق¹)، ولا بد أن يكون لهذه الكلمة أصل يوناني كأغلب الكلمات الغربية، لذلك فكلمة ديكتاتورية هي مشتقة من الفعل اللاتيني: (Dictātus ديكتاتوس) بمعنى يُملي أو يفرض أو يأمر، والديكتاتورية أنواع منها الدكتاتوريات الشمولية، وهي أنظمة ذات المجتمع المغلق التي لا تسمح لأي أحزاب سياسية ولا لأي معارضة ما، إذ تفرض هيمنتها وفق ما تراه من توجهات ومن أخلاق الحزب أو الحاكم.²

وهنا نجد أن الحاكم سواءً وصل إلى سدة الحكم بطريقة شرعية أم لا فإنه يغتصب الحكم تمام فينفرد بقراراته السياسية، لكن الاختلاف الموجود بينها وبين الحكم الاستبدادي أن الحاكم الدكتاتور يخدم مصالحه ومصالح شعبه كذلك، أما الحاكم المستبد فيوظف كل إمكانيات الدولة لخدمة أغراضه الشخصية، وقد ظهرت الكثير من الحكومات الدكتاتورية، كالنازية في ألمانيا بزعمارة أدولف هتلر، والفاشية في إيطاليا بزعمارة موسو ليني...
ب- الحكم الجماعي:

وهو كذلك من أقدم أنواع الحكم، ظهر عند اليونان، وهو الحكم الذي تشارك فيه كل أطراف الشعب المختلفة في اختيار حاكم ما، ويكون فيه الحكم جماعيا تشاركيا بين الحاكم والمحكومين وهو ما يعرف بالديمقراطية، التي تشعبت بدورها إلى عدة أنواع، لكن سنكتفي بمعالجتها بشكل عام.

- تعريف الديمقراطية: وهي مأخوذة من: "اللفظ مؤلف من لفظين يونانيين أحدهما (ديموس) ومعناه الشعب، والآخر (كراتوس) ومعناه السيادة. فمعنى الديمقراطية إذن سيادة الشعب، وهي نظام سياسي تكون فيه السيادة لجميع المواطنين لا لفرد، أو لطبقة واحدة

1 - لحام، سعيد محمد، وآخرون: القاموس السياسي ومصطلحات المؤتمرات الدولية، (م، س)، ص، 114.

2 - <http://ar.wikipedia.org/wiki/ديكتاتورية>

منهم. ولهذا النظام ثلاثة أركان. الأول: سيادة الشعب. والثاني: المساواة والعدل. والثالث: الحرية الفردية والكرامة الإنسانية.¹

وبالتالي فالديمقراطية في معناها حكم الشعب لنفسه، وهي أنواع حسب القدم، فأول أنواعها هي الديمقراطية المباشرة التي ظهرت عند اليونان، والتي تعني أن الشعب يحكم نفسه بنفسه.

أو كما نجد عند الجابري لما تحدث عن الديمقراطية الحقيقية من خلال تعريفه للمدينة اليونانية، فرأى أن ما يميز المدينة بمعناها الروماني (سيفيتاس) هو أنها "اجتماع سياسي يدير أعضاؤه شؤونهم بأنفسهم"، ومعنى المدينة حسبه هو نفس معنى بوليس الذي إذا أضفنا له معنى سياسة أصبح تدبير سياسي،² وربما المقصود هنا الحفاظ على المدينة أو الدولة سياسيا واقتصاديا وثقافيا وحتى عقائديا هو بالتدبير، أي إذا أرجعناها لأصلها اليوناني وجدناه بالبوليس، وهذا يدعو فعلا للتأمل؟

ومن شروط الديمقراطية أن يكون الحكم بيد الشعب مجازا، بمعنى أن يحكم الشعب نفسه من خلال حاكم يختاره طوع إرادته، ويكون هذا الأخير صاحب عرض للقرار، وليس صاحب القرار، أي أن لا يستبد الحاكم باتخاذ أي قرار إلا بالرجوع إلى صفوة الشعب من المنتخبين، أو كحد أدنى رجاله المتخصصين في أمور الدولة المختلفة،³ والملاحظ في ذلك أن هذا المبدأ الديمقراطي موجود في التشريع السياسي الإسلامي من خلال مبدأ الشورى، فكثير من الآيات دعت النبي المصطفى (ص) أن يشاور أصحابه خصوصا في أمور الحرب، ومن هذه الآيات قوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)⁴.

1 - صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، (م، س)، ص، ص، 569، 570.

2 - الجابري، محمد عابد: قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط.1، 1997، ص، 13.

3 - شرف، محمد جلال، ومحمد، علي عبد المعطي: الفكر السياسي في الإسلام شخصيات ومذاهب، (م، س)، ص، 74.

4 - آل عمران، الآية، 159.

وكما هو معلوم أيضا لدى العديد من الناس أن الديمقراطية في بداياتها المباشرة كانت تفتح فيها قاعات الاجتماعات لكل الناس، وكانوا يدلون بأرائهم واقتراحاتهم مباشرة لتناقش، ويصلون بذلك إلى تحديد القوانين والتشريعات التي تنظم حياتهم، ثم ومع ازدياد عدد السكان، أصبح من الصعوبة بمكان تطبيق الديمقراطية المباشرة، ما دعا إلى ضرورة إيجاد نوع آخر من الديمقراطية، تمثل في الديمقراطية التمثيلية، فحل ممثلون محل كافة الشعب في قاعات البرلمان، بحيث يختار أفراد المجتمع من يمثلهم عن طريق الاقتراع أو الانتخاب، ويكون ذلك على نحو سري في انتخابات تعددية منظمة، وهذا النموذج هو الأكثر شيوعا في الفترة الحديثة والمعاصرة، ومصطلح الديمقراطية التمثيلية هو مصطلح مرادف لكلمة الجمهورية خصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية.

كذلك يوجد نوع آخر من الدكتاتوريات وهو الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية خصوصا في دول العالم الثالث، وهي الدول حديثة الاستقلال، كما ظهرت الدكتاتوريات العسكرية بكثرة في الآونة الأخيرة خصوصا في الدول الإفريقية، وهي دكتاتوريات تعتمد على قوة السلاح والعسكرة¹ والملاحظ في هذه الحكومات أن حاكم الدولة دائما ما يكون من رجال الجيش، ولطالما توسمت هذه الدول بعدم الاستقرار، ويعود السبب طبعا إلى لكثرة الانقلابات.

وكذلك نجد من الدكتاتوريات وحسب وجهة نظر الليبراليين الدول ذات أنظمة الحكم الشيوعي والاشتراكي، التي هي حسب رأيهم دول لا تتمتع بالاستقرار السياسي، لشيوع الانقلابات العسكرية والاضطرابات السياسية كما أسلفنا، فضلا عن الفساد الأخلاقي، و الفساد الإداري المتمثل في الرشوة والمحسوبية، والبيروقراطية، وكثرة النهب، والسرقة، والاختلاسات.²

و لربما تكون هذه النظرة تعسفية مادام أن هذه الآراء بناها أصحابها وفق ترسبات إيديولوجية، خصوصا وأنها خاضت مران الحرب العالمية الثالثة في ثوب بارد.

1 - <http://ar.wikipedia.org/wiki/ديكتاتورية>، الموقع نفسه.

2 - الموقع السابق.

وكما أشرنا آنفا أن الديمقراطية عرفت أشكالا وألوانا، فإننا نجد من هذه الألوان النظام العلماني الحديث النشأة، والذي يعني فصل الدين عن الدولة، وينادي إلى حرية الدين، وهو الذي تمخض على تلك الثورات التي هزت أوروبا في العصر الحديث وكذا ثورة العمال في فرنسا على وجه الخصوص، وقد كان بدعوات فلاسفة كثر خصوصا في الربع الأخير لفترة العصور الوسطى، ونجد من هؤلاء مكيافيللي الذي حاول فصل القيم الخلقية عن الدولة، وقد ذاع صيته كثيرا بمقولته المشهورة التي أوردها في كتابه الأمير "الغاية تبرر الوسيلة"¹.

ومن هؤلاء أيضا نجد توماس هوبز الذي أشرنا إليه سابقا، حين كتب مؤلفه المشهور التتين (اللويثان - Leviathan)، والذي أورد فيه أنه من المستحيل على الإنسان أن يخدم سيدين في آن واحد، وهما الدين والدولة، لذلك على السلطة الدينية الروحية المليئة بالأخطاء حسبه أن تخضع خضوعا مطلقا لسيطرة الدولة.²

من كل ما سبق يتضح لنا جليا أن هناك علاقة جد وطيدة بين الدين والسياسة، وكما كان متوقعا ومنذ الفلاسفة اليونانيون القدماء فإن الشعوب الغربية رفضت في آخر حضاراتها الحديثة هيمنة الدين على السياسة، وقد نجحت إلى حد كبير بفصلهما عن بعضهما البعض. والجدير بالذكر أن هذه الشعوب عرفت طابعا جديدا من الحياة الاجتماعية، الذي إن أردنا أن نحدد معالمه قلنا عنه أنه مجتمع خالي نسبيا من الأخلاق، وهذا راجع إلى أن الفعل السياسي الذي هو طبيعة بشرية جبل الإنسان عليها أصبح منفصل عن الأخلاق، وأخذت السياسة التي هي من صنع البشرية تعريفات غريبة شاعت بين الناس، ولربما يكون أهمها وأكثرها غرابة أنها "اللعبة القذرة".

وبالتالي يمكن أن نقول أن التوجهات الإيديولوجية للكثير من الفلاسفة الغربيين قد نجحت إلى حد كبير في ما كانت تسعى له، وهو بناء مجتمع مادي لا روحي، يحمل شعارات كالحرية المطلقة، والمساواة المطلقة، وحقوق الإنسان، وغيرها من الشعارات.

1 - كتاب الأمير، مصدر سبق ذكره، ص، 91.

2 - إمام، إمام عبد الفتاح: الأخلاق.. والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، (م، س)، ص، 275.

ومن هذا كله؛ وفي مكان آخر غريب عن العالم الغربي الأوروبي، كانت تنمو هناك قوة أخرى من هذا الفكر، وكانت تنتشع بأهم المبادئ والشعارات التي كانت تحملها أوروبا الثائرة على سلطة الكنيسة وملوكها، هذه القوة هي عبارة عن مستعمرات عرفت باسم: (نيوانجلند)، وسرعان ما لحق نسيم الثورة التي عرفتها أوروبا هذه المستعمرات، وسرعان ما حملت البنت السلاح متصارعة مع أمها، واثر معارك طاحنة قادها جورج واشنطن، وبمساعدة أوربية فرنسية، استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أن تحصل على استقلالها من بريطانيا، أين تم إعلان ذلك بصفة رسمية في الرابع من يوليو عام 1776.¹

وفي هذه اللحظة التاريخية ظهرت ربما أهم وثيقة تاريخية، لخصت ما كانت أوروبا ولعقود تصارع من أجله، وهو فصل الدين عن السياسة، وقد كانت وثيقة "إعلان الاستقلال" هذه مرادة تماما للشعارات التي رفعتها أوروبا لفترات طويلة، وهي من صياغة توماس جيفرسون، حيث جاء فيها مايلي:

>>إننا نؤمن بأن هذه الحقائق واضحة بذاتها، وهي أن الناس جميعا قد خلقوا سواسية، وإن خالقهم قد حباهم بحقوق معينة هي جزء لا يتجزأ من طبائعهم، منها "حق الحياة"، وحق الحرية"، "والبحث عن السعادة"، وأنه لكي يظفر الناس بهذه الحقوق، أقيمت فيهم الحكومات، تستمد سلطاتها العادلة من رضى المحكومين، ... فمن "حق" الشعب أن يغيرها أو يزيلها، وأن يقيم حكومة جديدة تضع أساسها على مبادئ...<<².

وبالتالي إذا تأملنا في هذا لتوصلنا يقينا أن كلما تطرقنا إليه في مبحثنا هذا قد أجمله وأشمله هذا الإعلان، بحيث طالبت الثورات التي نشبت في أوروبا حكوماتها بالمساواة في كل شيء، وهو ما نجده في بديهة هذا الإعلان، كما طالب أنصار الدين الطبيعي يتقدمهم هوبز بالحقوق الطبيعية التي - على حد تعبيرهم- زودتها الطبيعة لهم، وهي ما قام عليه هذا

1 - المرجع السابق، ص، 332.

2 - المرجع نفسه، ص، 333، 334.

الإعلان، كما جعل أنصار العقد الاجتماعي الثورة هي أساس قيام أي دولة إن عجزت حكومتها عن المحافظة على حياة الناس، وهذا ما أكد عليه الإعلان.

ونصل في الأخير إلى القول أن قيام الحضارة الأمريكية على هذه الأسس، يجعلها حضارة مادية بامتياز، وهو فعلا الذي وقع، فالطابع الفكري الأمريكي تسيطر عليه وبقوة المذاهب الفكرية المادية، التي تصل إلى حد الإلحاد، وتجعل من المنافع والمصالح أساسا للأخلاق، والتي يتقدمها المذهب البراغماتي الذي أسسه الفلاسفة الأمريكيين بزعامة كل من تشارل ساندرس بيرس، وويليام جيمس، وجون ديوي.

الفصل الثاني:

السياسة الداخلية والخارجية للولايات المتحدة

منظار تشومسكي.

المبحث الأول: موقف تشومسكي من السياسة الداخلية
الأمريكية.

المبحث الثاني: موقف تشومسكي من السياسة الخارجية
الأمريكية.

الفصل الثاني:

من المعلوم أن الإنسان كائن ذو ثلاثة أبعاد، بعد ماضي وهو الذي يهتم به علم التاريخ، وبعد اجتماعي على حسب ما ذهب إليه إميل دوركايم بقوله " الإنسان اجتماعي بطبعه" ويدرسه علم الاجتماع، وبعد نفسي يكشفه لنا علم النفس، ويتضح أيضا مما سبق ذكره في الفصل الأول أنه يمكن أن نضيف بعدين هامين للإنسان، وهما البعد الديني حيث قال الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور (1860/1788م) إن "الإنسان كائن ميتافيزيقي"، والبعد السياسي، وهو الذي نادى به أرسطو كما أشرنا إلى ذلك سابقا حين قال "الإنسان حيوان سياسي".

وكما شهدنا فإن للدين علاقة جد مميزة بالسياسة، فمنذ القدم والإنسان يبني حضاراته التي تتوالى بطابع سياسي متدين، وقد استمر هذا إلى غاية الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، ولما ابتعدت هذه الحضارة عن الدافع والرادع الذي يجعل الناس تلتحم من أجل تتميتها والمحافظة عليها، بدأ نورها في الأفول، حيث كانت معرضة لأطماع العديد من المتربصين.

لكن هذا المبدأ تغير في العصر الحديث والمعاصر، فبتعلمن الحياة الأوروبية ظهرت وتطورت حضارة غربية قوية، خالفت في محتواها الفكري والعقائدي الحضارات التي سبقتها، ما جعلنا في حيرة من أمرنا إن كان سبب ذلك يعود إلى الدين، أم إلى شيء آخر. ومن هنا كان لزام علينا أن نعاين بمنظار التحليل و المقارنة منبع قوة هذه الحضارة؟ وكيفية تطورها؟ وأسباب رفاها؟ محاولين أن نجيب على ذلك في هذا الفصل.

المبحث الأول:

لقد كان الفكر الأوروبي في نهاية العصر الوسيط يدعو إلى التحرر من أي سلطان، وكان يدعو إلى الحياة الأولى، أو الحياة الطبيعية، ولعل أهم ما نجح هذا الفكر في التخلص منه هو سلطان الدين، فعرفت أوروبا الحديثة حلة جديدة تمثلت في جيل ثائر على كل الاعتقادات الدينية أولاً، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية.

ولم تعش أمريكا بمعزل عما كان يجري من أحداث في أوربا الحديثة، لأنها كانت تسعى هي الأخرى للتحرر من العبودية والتبعية، وبعد استقلال أمريكا عن الأم بريطانيا، بحروب التحرر التي كان يقودها جورج واشنطن (1799/1732م) و إعلان الاستقلال عام 1775م، ظهرت في الأفق هناك حضارة قوية جديدة.¹

وسرعان ما أصبحت هذه الحضارة أكبر قوة سياسية واقتصادية غيرت مسار العالم، لذلك فالناظر المتأمل في سياسة عصرنا هذا، لا يجد بدا من أن يحلل منطق الساسة الأقوياء والسياسات الناجحة، وهذا ما دفعنا إلى محاولة فهم الفكر السياسي الأمريكي انطلاقاً من فلاسفته ومفكره، وقد اخترنا لبحثنا هذا أفرام نعوم تشومسكي*.

فكيف ينظر تشومسكي للسياسة ؟

وكيف هي السياسة الداخلية للسياسة الأمريكية من منظاره الخاص ؟

1 - إمام، إمام عبد الفتاح: الأخلاق.. والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، (م، س، ذ)، ص، 333.
* أفرام نعوم تشومسكي ولد في السابع من ديسمبر لعام 1928، في حي أوكلين الشرقي من فيلادلفيا، بنسلفانيا بالولايات المتحدة، هو أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي، إضافة إلى أنه عالم إدراكي وعالم بالمنطق، ومؤرخ وناقد وناشط سياسي. وهو أستاذ لسانيات فخري في قسم اللسانيات والفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا والتي عمل فيها لأكثر من 50 عام. إضافة إلى عمله في مجال اللسانيات فقد كتب تشومسكي عن الحروب والسياسة ووسائل الإعلام وهو مؤلف لأكثر من 100 كتاب. وفقاً لقائمة الإحالات في الفن والعلوم الإنسانية عام 1992 فإنه قد تم الاستشهاد بتشومسكي كمرجع أكثر من أي عالم حي خلال الفترة من 1980 حتى 1992، كما صُنف بالمرتبة الثامنة لأكثر المراجع التي يتم الاستشهاد بها على الإطلاق في قائمة تضم الإنجيل وكارل ماركس وغيرهم. وقد وُصف تشومسكي بالشخصية الثقافية البارزة، حيث صُوت له كـ "أبرز مثقفي العالم" في استطلاع للرأي عام 2005، ومازال على قيد الحياة.

السياسة الداخلية حسب تشومسكي:

إن السياسة الأمريكية إذا شئنا القول هي سياسة جد محكمة وقوية، ويكمن سرها في قوة التوافق الاجتماعي بين أفراد الشعب الأمريكي، رغم أنه شعب مختلط مليء بالأعراق والأجناس المختلفة، ولمدار عدة سنوات توصلت السياسة الداخلية في أمريكا للوصول إلى ما وصلت إليه، بحيث أصبحت تمرر أي رسالة للشعب الأمريكي دون عناء، ودون معارضة شديدة. فما السبب يا ترى؟

1 - سياسة الإعلام ومدى تأثيرها على الفرد الأمريكي من منظور تشومسكي:

يحاول تشومسكي في العديد من كتبه توضيح السياسة الداخلية الأمريكية، ولعل أهم كتاب تناول فيه هذا الأمر هو كتاب السيطرة على الإعلام (ترجم سنة 2003م)، حيث يتطرق تشومسكي في كتابه هذا إلى الدور الكبير الذي يقوم به الإعلام لبسطة سيطرة الطبقة الحاكمة على الشعوب بصفة عامة، ويعني الإعلام هنا حسب تشومسكي كل من الدعاية، الترويح، التبشير، ويطلق عليها مصطلح بروباجندا (Propaganda) وهي كلمة مضادة للموضوعية في تقديم المعلومات، وتعني نشر المعلومات وتوجيه مجموعة مركزة من الرسائل بهدف التأثير على آراء أو سلوك أكبر عدد من الأشخاص.

ويوضح تشومسكي في كتابه هذا أن المجتمع الديمقراطي تكون فيه وسائل الإعلام في شاكلتين، فإما تكون مفتوحة وحرّة، يتحكم فيها الشعب، ويسخرها وفقاً لإرادته وتطلعاته، وإما تكون مراقبة وهي غير حرّة، وتكون هنا تحت سلطة الدولة، فتسخرها لحرب خفية على المجتمع الذي تحكمه هذه السلطة، وغايتها هي بسط سيطرتها على كامل أطرافه.¹

1- تشومسكي، نعوم: السيطرة على الإعلام، تر: أميمة عبد اللطيف، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط.1، 2003، ص، 7.

يعتبر تشومسكي أن الإعلام في الولايات المتحدة مراقب بشدة وغير حر، ذلك من خلال إبعاد الجماهير عن التفكير في القضايا المهمة من خلال عدة أمور، لربما يكون أهمها الهالة الإعلامية على السينما ونجومها والرياضية، إذ تحتل السينما مكانة جد مرموقة في الوسط الأمريكي، لما توفره من إنتاج ضخم وعائدات أضخم، فقد وفرت السينما الأمريكية كل أنواع الأفلام السينمائية كالأفلام الاجتماعية والدينية، وأفلام الرعب والخيال، وأفلام الحركة والإثارة والعنف، والأفلام العلمية والكرتون، وحتى أفلام الحب والجنس، وذلك رغبتنا منها لتخدير أكبر قدر ممكن من المشاهدين، والهائم على ما يجري حولهم من أحداث، ولمنعهم من التفكير في ما يقوم به الساسة، ولحجب الأحداث التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية خارجياً، إذ كونت لنفسها الكثير من الأعداء والطامعين، ومن هنا فدور الإعلام الأول يتمثل في التحكم في الرأي العام، ويتمثل الدور الآخر للإعلام هو فيما قامت به لجنة "كريل" عام 1916م، عندما كان المواطنون الأمريكيين مسالمين تجاه الحرب العالمية الأولى، وبفضل هذه اللجنة تحولوا وفي ظرف ستة أشهر فقط من حالة السلم إلى العدوانية، إذ تملكتم هستيريا الحرب.¹

ولم يمر هذا الدور الذي قامت به لجنة كريل على تاريخ البشرية مرور الكرام، إذ سرعان ما أصبحت هذه اللجنة مثلاً يحتذى به في تحوير وتغيير الرأي العام لأي دولة، وهاهو اليوم تاريخ الإعلام السياسي والحربي يربط مباشرة في بداياته بها، وهذا لأن الإعلام هنا اتخذ منحا آخر وهو الانتقال من مرحلة النبل والشفافية إلى مرحلة الوضاعة والفساد، أي من حماية العامة إلى حماية مصالح النخبة.

وقد قام الإعلام الأمريكي بدور كبير في تحويل وقلب الرأي العام للمجتمع الأمريكي من خلال ما فعلته هذه اللجنة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فمادام أن السلطة عادة ما تحاول التنقيب والبحث عن المصالح المشتركة، فلا بد من أن يظل الإعلام هو الوسيلة

1 - المصدر السابق، ص، 8.

الأساسية المنتهجة للتحكم في الرأي العام، وهذا ما حدث فعلاً بعد أن حوّل الإعلام من جديد وباستمرار الرأي العام إلى الخوف الشديد من التحول الكبير الذي كان يمس أرجاء العالم، وذلك بظهور القطبية الشيوعية التي اعتمدت على النهج الاقتصادي الاشتراكي، والذي كان له صداً كبيراً، إذ اجتاحت هذا النهج ولفترة وجيزة دول أوروبا الشرقية، وأغلبية دول العالم الثالث، خصوصاً حديثة الاستقلال منها كالجزائر، ومصر... وهذا الذي جعلهم يؤكدون على رفضه لأنه يهدد مصالحهم، ويعادي النهج الرأسمالي الذي كان سائداً في أمريكا وأوروبا الغربية.

هذا الرفض تمثل في الدور الذي قام به الإعلام الغربي عامة، ولجنة كريل في أمريكا خصوصاً، حيث سودوا صورة النظام الجديد، الذي جعلوه محفوف بأقوى وأنواع المخاطر، حتى شاع بين الناس ما يعرف بـ "الرعب الشيوعي"¹.

ولإظهار دور الإعلام الخطير، يقدم تشومسكي مثالا على التزييف الذي قام به الإعلام البريطاني أثناء الحرب العالمية الأولى، والذي كان هدفه الرئيسي قلب الرأي العام في إنجلترا وفي العالم أجمع، وبدرجة أخص قلب رأي الطبقة المفكرة والذكية والمتقفة في الولايات المتحدة الأمريكية، لمعرفة التامة أن الطبقة المتقفة والمفكرة هي التي سيكون لها الدور الحاسم في تغيير السياسة الأمريكية عامة من مرحلة الحياد إلى مرحلة الحرب، ومن هذه الدعايات الكاذبة التي استعملها الإعلام الإنجليزي، ما نقله عن المجزرة التي ارتكبتها النازيون على الأطفال البلجيكيين الأبرياء الذين قتلوا بوحشية، ونكلت أجسادهم ومزقت أذرعهم.²

1 - إدوارد، بيرنيز: (في مفهوم السيطرة عند نعوم تشومسكي "2-2")، مجلة راديكال (إلكترونية نصف شهرية)، العدد 41، 31/16 كانون الأول (ديسمبر) 2013.

2 - تشومسكي، نعوم: السيطرة على الإعلام، المصدر والصفحة نفسها.

إذا نستشرف من هذا أن الإعلام يستعمل أنواعا من الطرق الملتوية التي يستطيع من خلالها تحوير وتقويض الرأي العام وفق إرادة ساسته وحكامه، وبالتالي فمجال الحقائق هنا يتسع ويضيق حسب قوة وأقول المصالح، ولعل هذا الذي دفع بعض أبواق الإعلام لفضح هذا الدور الذي يقوم به الإعلام، إما لانعدام مصالحتهم، أو لصحوة ضمائرهم.

وفي هذا الصدد يمكننا أن نستشهد بما استشهد به كل من دافيد إدواردز، ودافيد كرومويل في كتابهما حراسة السلطة أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية، حيث عرضا لموقف إريك فروم في كتابه فن الوجود، حين قال: "ظهر سلوك آخر تمثل في عمق عدم الثقة. طالما كان معظم ما نسمعه إما غير حقيقي كلية، أو يحمل نصف الحقيقة ونصف التشويه، وطالما كان ما نقرؤه في الصحف هو عبارة عن تفسيرات محرفة تستخدم كحقائق، تصبح أول خطوة في مواجهة ذلك منهجاً شكياً جذرياً. وافترض أن معظم ما نسمعه هو إما كذب أو تشويه للحقائق".¹

ولو نتساءل عن الغاية التي دفعت الساسة الغربيين لفعل ذلك، لوجدنا أن السبب الرئيسي هو سبب قديم يتمثل في المصالح والمنافع، وإن كان قد تغير نوع المنافع نوعا ما في العصر الحديث، إلا أنه يرتبط أشد الارتباط بالمادة، لكن يا ترى من هم هؤلاء أصحاب المصالح والمنافع؟ لنجيب عن هذا السؤال سنفتش قليلا فيما تطرق إليه تشومسكي.

من خلال نفس الكتاب لتشومسكي (السيطرة على الإعلام)، نجد أنه بسبب ما قامت به لجنة "كريل"، اكتشفت الولايات المتحدة الأمريكية دور الإعلام الإيجابي لها الذي به يمكن أن توجه الرأي العام الأمريكي على حسب الأهواء والرغبات التي تنتاب ساستها، ما جعل العديد من المفكرين والسياسيين الأمريكيين يستسيغون هذا الدور الهام الذي يمكن للإعلام

1 - نقلا عن: إدواردز دافيد، ودافيد كرومويل: حراسة السلطة أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية، تر: آمال كيلاني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط.1، 2006، ص، 21.

أن يلعبه في قادم الأيام، وكذا يكتشفون ذهنية المحكومين وكيفية التحكم بها، ما جعل والتر ليبمان* يؤكد على ضرورة تقويض الرأي العام على حسب الضرورة حينما قال:

"إن الثورة في فن الديمقراطية تكمن في تطويع الجماهير بما يخدم ما يسميه "صناعة الإجماع"؛ بمعنى جعل الرأي العام يوافق على أمور لا يرغبها بالأساس عن طريق استخدام وسائل دعائية."¹

وبالتالي فهي مصالح فئة من الناس أو الأفراد، وهي الفئة الراقية أو الحاكمة التي تبسط سيطرتها على باقي أطراف المجتمع، وتسعى إلى تسييره وفق إرادتها ومصالحها المختلفة والمشاركة بينها.

هذا الإدعاء الذي قال به تشومسكي له من يتبناه، حيث نجد على سبيل المثال لا الحصر في كتاب "حراسة السلطة"، أن الإعلام خصوصاً منه الحر يلعب دوراً خطيراً، فهو مكيف لخدمة أصحاب المصالح، أو النخب على حد تعبير الكاتب، لذلك فهو إعلام فاسد كاذب، يحرف ويزور ويقزم الحقائق عن بشاعة الإبادة والجرائم المرتكبة في حق الشعوب.²

إن اكتشاف دور الإعلام الكبير جعل من المفكرين الأمريكيين يدركون حقيقة واحدة وهي أن السيطرة على السلطة لا تكون إلا في يد الأقلية المفكرة ذات المال والنفوذ القوي، في مقابل الطبقة الأخرى التي تشكل الأغلبية، وهي طبقة العامة التي لا تملك إلا المشاهدة.

من هؤلاء المفكرين: ليبمان الذي تفنن في عرض نظريته المفصلة في الديمقراطية التقدمية، حيث قسم المجتمع إلى طبقتين تمثل الأولى أعتا الطبقات وأشدّها دهاءاً وذكاءً، وهي التي تكون حاسبه قائدة للطبقة الثانية التي هي طبقة الأغبياء كما وصفها، أو هي طبقة

* والتر ليبمان عميد الصحفيين الأمريكيين وأحد أهم محلي السياسة الخارجية والمحلية، وكذا أحد أهم المنظرين الليبراليين الديمقراطيين، وتحمل العديد من مقالاته عناوين على شاكلة "نظرية تقدمية للفكر الليبرالي الديمقراطي"، كما وأن ليبمان كان منخرطاً في لجان الدعاية واعترف بإنجازاته.

1 - تشومسكي، نعوم: السيطرة على الإعلام، (م، س، ذ)، ص، 9.

2 - إدواردز دافيد، ودافيد كرومويل: حراسة السلطة أسطورة وسائل الإعلام الليبرالية، (م، س، ذ)، ص، 22.

"القطيع الحائر أو الضال" على حد تعبيره، كما يرى أنه لا بد من ترويض هذا القطيع بعدم ترك أي مشاركة لهم، إلا في اختيار من يمثلهم من رؤساء تختارهم الطبقة المتخصصة.¹

بل قد يتعدى الأمر ذلك من خلال تأكيد هؤلاء على أن العامة هم مجموعة من الأغبياء الذين يصعب عليهم تسير شؤونهم الخاصة، ومنه فلا بد أن ننظر إليهم هذه النظرة القاصية التي تجعلهم في مصاف الحيوان، ما يعني أن العامة عاجزة تماما عن تسيير شؤونها.

ويؤكد تشومسكي نظرة والتر ليبمان هذه من خلال الحوار الذي أجراه مع مجلة دير شبيغل*، حيث يعرض لما قاله ليبمان بشكل موجز ودقيق، ذلك لما تحدث عن موقف جيمس ماديسون* في الاتفاقية الدستورية، التي يجب أن تحمي من خلالها الدولة الأقلية الثرية من الأكثرية، فقال: "كان من الرأي الذي يرى انه في الديمقراطية الفاعلة كما ينبغي، يجب تحكم وأن تحمي الأقلية الذكية من (دوس وزئير القطيع المرتبك)"².

وفي الحقيقة فإن هذه الرؤيا قديمة ظهرت مع العديد من المفكرين الأمريكيين وغيرهم، من أمثال رينهولد نايهور* الذي أكد على أن: " (المنطق مهارة لا يتمتع بها إلا القليل)، لأن غالبية الناس تتحكم فيهم عواطفهم وأهوائهم"³.

1 - تشومسكي، نعوم: السيطرة على الإعلام، (م، س، ذ)، ص، ص، 10، 12.
* دير شبيغل بالألمانية (Der Spiegel) : هي مجلة أسبوعية ألمانية مصورة تصدر من هامبورغ، إحدى أشهر المجلات الإخبارية الألمانية. يعني اسمها مترجما للعربية "المرأة". يتم طبع 1,1 مليون نسخة أسبوعيا لتكون بذلك أكثر مجلة توزع وتطبع في ألمانيا وأوروبا.

* جيمس ماديسون (16 مارس 1751 - 28 يونيو 1836)، رابع رئيس للولايات المتحدة بالفترة من 1809 - 1817، وعرف بأبي الدستور، لعب دوراً هاماً في وضع دستور الولايات المتحدة عام 1787 بالتعاون مع ألكسندر هاميلتون وجون جاي، وكان من بين الزعماء الرئيسيين المؤيدين لمغزى الدستور في الصحف الفيدرالية، في عام 1788 قام بإنشاء الحزب الجمهوري الديمقراطي في منتصف التسعينيات من القرن الثامن عشر بالتعاون الوطني مع توماس جفرسون وأسس حركة جراس روتس جذور العشب (Grass Roots) ذات النشاط السياسي والتي انتصرت في انتخابات عام 1800.

2 - تشومسكي، نعوم: أشياء لن تسمع بها أبدا...، تر: أسعد الحسين، دار نينوى، دمشق، د. ط (دون طبعة)، 2010، ص، 45.
* رينهولد نايهور عالم لاهوت ومحلل السياسة الخارجية وهو عميد المفكرين من عهد جورج كينان إلى كينيدي.

3 - تشومسكي، نعوم: السيطرة على الإعلام، (م، س، ذ)، ص، 12.

كما أقر تشومسكي على قدم هذا الدور الذي يقوم به الإعلام أيضا في أحد الحوارات المسجلة له، أين تحدث عن الطرق التي تستعملها الطبقة المتحكمة، أو كما يسميها تشومسكي نفسه "مجتمع الأعمال"، حيث تبسط سيطرتها على أطراف المجتمع المختلفة من خلال سلسلة كبيرة من الوسائط الإعلامية كالسينما والمسرح والموسيقى والراديو والتلفزيون، ولم يستثنى من ذلك حتى التعليم، الذي يظن أن جزءا كبيرا من برامجه أو مناهجه الدراسية تهدف إلى شيء آخر غير ما يبدو منها، حيث تساهم هذه الوسائل في عملية التحكم أو السيطرة على العقل الجمعي للمجتمع (Control of the public mind of the community)؛ على حد تعبيره، ودون أن ينسى تشومسكي ضخامة الإعلانات وتأثيرها، وما يظهر أيضا وبشكل دائم على صفحات الجرائد، وما تتناوله المجالات؛ وهنا أشار إلى أن هذا الدور الذي تقوم به وسائل الإعلام خدمة لمجتمع الأعمال، أو الطبقة المميزة ليس وليد اللحظة أو حديث المنشأ وإنما هو قديم يعود إلى القرن السابع عشر، نجده خصوصا في كتابات ديفيد هيوم، أين توصلت هذه الطبقة في إنجلترا إلى أن القوة ليست سبيل يمكن من خلاله التحكم في الناس، لذا بحثوا عن سبل أخرى لذلك أهمها حسب تشومسكي، هو السيطرة على ما يفكر الناس فيه، وما يشعرون به، وكذلك الاهتمام بدراسة سلوكيات الناس فيما بينهم وتجاه بعضهم.¹

قدم الدعاية حسب تشومسكي يعود إلى القرن السابع عشر، حيث أورد ذلك في كتابه الريح فوق الشعب فقال: (استهوى هيوم "السهولة التي يجري فيها حكم الكثرة من قبل القلة"، الخنوع الضمني الذي يسلم به الرجال "مصيرهم لحكامهم". فوجد ذلك مثيرا للدهشة والعجب، لأن "القوة تكون دائما الى جانب المحكوم". لو ادرك الناس ذلك لانفضوا واطاحوا بأسيادهم.

1 - <https://www.youtube.com/watch?v=noKena-9vZo>

وخلص الى ان الحكومة قائمة على التحكم بالرأي، وهو مبدأ "ينسحب على اشد الحكومات استبدادا وغالبية الحكومات العسكرية وكذلك على اكثرها حرية وشعبية"¹.

ومن هنا تم لهم بقاء الأمر على حاله، فحافظ أهل الحكم والقرار على مصالحهم، وعلى حكمهم الديمقراطي السوري، بل ألبسوا مصالحهم هذه ثوب الشرعية، من خلال استمالة تأييد العامة المحكومة لهم، ولقراراتهم، دون وعي.

وفعلا فإننا نجد أساس من الصحة لآراء تشومسكي حول عتق هذه النظرة منذ العصر الحديث، كما نجد لها امتدادا في ما تلاه من زمن، فالحروب العديدة التي عرفتها أوروبا خلال تلك الفترات أدت إلا ميلاد العديد من الطرق والوسائل التي حاول بها القادة التحكم في المحكومين، وطمس آرائهم.

ولعل ما قال به كلوزفيتز* في القرن التاسع عشر لخير دليل على ذلك حيث يقول عن الدعاية :

"إن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل مختلفة. إن السياسيين هم من يشنون الحرب وسياساتهم هي التي تسببها؛ وصنعتهم هي فن الممكن. والدعاية لا تعمل في فراغ منفصل عن الحقائق الاجتماعية أو السياسية. إنها وسيلة أساسية يحاول القادة بواسطتها أن يكسبوا التأييد العام من الجمهور لسياساتهم أو أن يتجنبوا بواسطتها المعارضة لتلك السياسات.

1 - تشومسكي، نعوم: الريح فوق الشعب الليبرالية الجديدة والنظام العولمي، تر: مازن الحسيني، دار التنوير للترجمة والطباعة والنشر، رام الله (فلسطين)، ط.1، 2000، ص، 57.

* كارل فون كلاوزفيتز (Carl von Clausewitz): ولد سنة 1780 في ماغدبورغ الألمانية وتوفي سنة 1831 في بريسلو، جنرال ومؤرخ حربي بروسي. من أهم مؤلفاته كتاب (Vom Kriege) أي: من الحرب. تركت كتاباته حول الفلسفة والتكتيك والإستراتيجية أثرا عميقا في المجال العسكري في البلدان الغربية. تدرس أفكاره في العديد من الأكاديميات العسكرية كما أنها تستعمل في عدة مجالات مثل قيادة المؤسسات والتسويق. ويعتبر من أكبر المفكرين العسكريين شهرة وتأثيرا على مر التاريخ. (<http://ar.wikipedia.org>)

ويتوقف نجاحهم - أو ما يخالف ذلك - في إنجاز هذا الهدف، على مقدار مهارتهم في استغلال فن الدعاية...¹.

لذلك مثلت الدعاية أحد أهم الوسائل التي استعملها الحكام منذ فترة طويلة، إذ بواسطتها تبلورت أفكارهم السوداء التي لا تحمل إلا مصالحهم إلا أفكار تقاثل عليها مجتمعاتهم بكل ما تملك من نفس ونفيس، وبالتالي صح استعمال تسمية طبقة النخبة على أصحاب القرار، كما صح استعمال اسم القطيع الضال على باقي أطراف المجتمع.

ومن هنا فالواجب أن هؤلاء القلة الذين يملكون هذه المهارة هم من يقررون مصير الكثرة، التي لو ترك لها ذلك لأدخلت المجتمع في فوهة بركان، وكان التخلف مآل محتوم للمجتمع والدولة على السواء، ولكانت هذه الدولة لقمة صائغة لأفواه الكثير من الأعداء المترصين، وفعلا فإننا نجد أن كل الحضارات الإنسانية التي تعاقبت منذ أمد بعيد كان الحكم فيها لفئة مميزة من الناس، هي التي صنعت أمجادها، ولما يصير الأمر يوكل لغير أهله، أي يخرج من دائرة القلة المميزة نحو الكثرة العامة العادية، تبدأ هذه الأمة في الانحدار والتقهقر إلى أن تصل إلى درجة الاحتضار، ثم تنهار وتموت، لتولد على إثرها وعلى أنقاضها أمة أخرى فنية وقوية، فنجد أن مراحل حياة الإنسان هي نفسها مراحل حياة الأمم والحضارات.

لكن تشومسكي يرى أن هذه القلة التي تحكم أمريكا، تحكم بطرق غير خلقية، وهو ما جعله يفضح أمرها، حيث أول ما تقوم به هو توجيه الرأي العام وفق إرادتها كما أشرنا إلى ذلك سابقا، وقد أكد لنا تشومسكي ذلك من خلال:

أولا: تزيف التاريخ وذلك بعرض الحقائق عرضا عكسيا، فالنخبة التي تحدث عنها تشومسكي تقلب الرأي العام حيث تجعل من تدمير الآخرين في نظر شعبها هو دفاع عن النفس وذلك باستعمال وسائل الإعلام، وقد قدم لنا تشومسكي مثال عن ذلك لما عرض لنا

1 - تايلور، فيليب: قصف العقول، تر: سامي خشبة، عالم المعرفة، الكويت، أبريل 2000، ص، 369.

دور نخبة الرئيس كيندي في تزيف الحقائق، وذلك لما أرادت أن تبرر للحرب على جنوب فيتنام، فاصطنعت ما يعرف بـ "العدوان الداخلي"، وهي الخدعة التي قام بها أدلاى ستيفنسن* وآخرون وانطلت على المجتمع الأمريكي.¹

كما قدم تشومسكي دليلا لهذا المثال، وهو على العمل التضليلي الذي تقوم به طبقة النخبة في عرضها للحقائق، فقد أجرت جامعة ماساتشوستس دراسة حول توجهات الرأي العام من أزمة الخليج، وتطرقت إلى سرد عدد ضحايا حرب فيتنام، فكانت الإحصاءات هي 100 ألف ضحية، في حين كان العدد الرسمي 02 مليون ضحية، أما العدد الحقيقي حسب تشومسكي فهو يفوق ذلك بكثير، إذ يربو عن 03 أو 04 مليون، ويضع لنا تشومسكي هنا نوع من المقارنة حيث يعرض لنا ما قامت به ألمانيا النازية في محرقة اليهود، حيث يقدر عدد الضحايا فيها بـ 300 ألف ضحية.²

من هذه المقارنة البسيطة يظهر لنا الدور الخطير الذي تقوم به وسائل الإعلام داخل الولايات المتحدة، فهي تضخم الأحداث المتنافية مع مصالح النخبة أو الساسة تضخيما مهولا، وتجعل من التدخل في شئون الدول الخارجية دفاعا عن النفس، وحفظا للديمقراطية والحرية والعدالة، كما تجعل من الكوارث البشرية والمادية التي تتسبب فيها مجرد نتائج حرب ضئيلة، بل ما جنته به هذه الدولة التي تم التدخل فيها من فوائد ومنافع، وتطبيق الديمقراطية، وتحقيق العدالة والمساواة والحرية، أكبر بكثير من الخسائر التي وقعت فيها، وهذه الخسائر طبعا هي خسائر عسكرية فقط.

* أدلاى ستيفنسن (05 فيفري 1900 / 14 جويلية 1965) رجل سياسة أمريكي كان حاكم ولاية ايلينوي 1949-1953. كان ستيفنسن المرشح الديمقراطي في انتخابات الرئاسة الأمريكية عام 1952 و 1956. لكنه هزم من قبل دوايت أيزنهاور، فاز تسع مرات على التوالي في سبع ولايات في عمق الجنوب. لأنه كان يمثل الجناح اليساري في حزبه.

1 - السيطرة على الإعلام، (م، س، ذ)، ص، 19.

2 - المصدر نفسه، ص، 20.

لكن الحقيقة حسب تشومسكي غير ذلك تماما، فتضخيم الأحداث الخارجية وتقليص حجم الخسائر، وتقزيم فظاعة المجازر المرتكبة خارجيا، يبرر بشكل كبير استعمال العنف والقوة ويقلص المخاوف تجاه ذلك، كما يؤدي إلى التحكم في الرأي العام وتوجيهه، وهو ما تؤكد منه أصحاب النخبة و السياسة، ما أدى بهم في هذه المواقف إلى عرض أي موضوع بعيدا عن الحقيقة في ذاتها، وسهل لهم استعمال القوة خارجيا، بل يلبس ذلك حلة من المشروعية و بإرادة الشعب الأمريكي وحرية واختياره، وهذا الأمر لا يوجد في الدولة الشمولية.¹

ومع تطور الوضع تغيرت ذهنية المجتمع الأمريكي شيئا فشيئا، وبدأت حالة من عدم الرضا تظهر في أوساط الشعب نتيجة تردي المستوى المعيشي والاقتصادي، وهو الأمر الذي دفع بالنخبة إلى الخوف من حالة صحوة القطيع الضال، ما جعلهم يبحثون عن أمر آخر يشغلهم عن التفكير في حالتهم المعيشية، لذلك يرى تشومسكي أن النخبة الاجتماعية والسياسية استعملت سبيلا آخر للمحافظة على مصالحها.

تمثل هذا السبيل في زرع الخوف من الأعداء داخل أوساط المجتمع الأمريكي، أو الطبقة العامة أو كما يسميها النخبة بالقطيع الضال، من خلال تكبير صورة الخطر المحدق الذي يحوم حولهم، وهنا انتقل الحديث من الحرب الأخيرة إلى الحديث عن الحرب القادمة، حيث يرى تشومسكي أنه في السنوات القليلة الماضية كانت هناك أسطورة الروس، أو أسطوانة الروس كما يسميها تشومسكي، فأى حدث يقع كان النخبة ينسبونه للروس، ويكفي قولهم ذلك لزرع الرعب والخوف في المجتمع، وعندما تكسرت صورة الروس ظهرت مكانها أسطوانات أخرى كالحرب على الإرهاب وتجارة المخدرات والشرق الأوسط و صدام حسين وغيرها.²

وفي سياق آخر؛ وكما أشرنا سابقا أن السياسة الداخلية الأمريكية جعلت من المواطن الأمريكي إنسان منمط يختار ما تختاره حكومته بحريته وإرادته ودون وعي منه، وقد أشار

1 - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

2 - المصدر نفسه، ص، ص، 23، 24.

تشومسكي إلى أن هذا النوع من السياسات لا يوجد في الدولة الشمولية، فإن هذا لا ينفي أن السياسة الأمريكية ليست شمولية، فبعض الأحداث السياسية التي تقوم بها أمريكا تتم تماما عن الثقافة الشمولية، وقد استدلت تشومسكي على ذلك بقوله: " ... ذلك أننا شموليون لدرجة انه يمكن أن نناقض للحرب بدون أى سبب، وبدون حتى أن يلاحظ أحد ذلك. هذه حقيقة مذهشة."¹

وإن كان تشومسكي اتهم السياسة الأمريكية على أنها لا تجافي كثيرا السياسة الشمولية إلا أنه أغفل نوعا ما الفرق الواضح الموجود بينهما، بحيث أن الأولى تتحكم فيها وبشراسة الطبقة البرجوازية التي تملك رؤوس الأموال الضخمة، وكبريات الشركات العالمية التي تسيطر بشكل مباشر أو غير مباشر على السوق العالمية، عكس النوع الثاني الذي كان الحكام فيه من صلب الطبقة الفقيرة العاملة، أو كما قال كارل ماركس البروليتاريا (proletarius) وهو المصطلح الذي ظهر في القرن التاسع عشر في كتاب "بيان الحزب الشيوعي" لكارل ماركس وفريدريك أنجلز، وهي الطبقة التي لا تملك أي وسائل إنتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري.

مما سبق نستنتج أن تشومسكي يؤكد على الدور القوي الذي تقوم به إدارة الإجماع أو ما يطلق عليه اسم شركات العلاقات العامة، التي هي إدارة متخصصة في مجال السيطرة على العقل العام الأمريكي، ويتمثل دورها الأساسي حسبه في السعي لغرس الروح القومية والوطنية، وزرع الهوية الأمريكية، كما تقوم بتضليل العقل الأمريكي من خلال حصر فكره في التنقيب عن الثروة والسعي للغنى، هذا من جهة، أما من جهة ثانية فلها دور فعال في تبرير الحروب والمغامرات التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية في الخارج كما أشرنا إلى ذلك سابقا، من خلال تضخيم الأحداث، وزرع الرعب والخوف في أوساط الشعب الأمريكي من الأخطار التي ترصده من الخارج، وبالتالي فإن لهذه الإدارة دورا كبيرا في نقل صورا

1 - المصدر السابق، ص، 31.

خاطئة للمجتمع الأمريكي عن العالم الخارجي، من خلال تزييف الوقائع والصور عنه، ومن خلال تزييف مجريات وحقائق التاريخ.

2- الشعارات التي ترفعها الولايات المتحدة الأمريكية:

أما بالنسبة للشعارات التي ترفعها الولايات المتحدة في كل حذب وصوب حول الديمقراطية، والحرية، والعدالة، ففي نظر تشومسكي هذا مجرد وهم، إنه يمثل تماما ذر الرماد في العيون، فلا ديمقراطية حقيقية في الولايات المتحدة الأمريكية، إنما هي ديمقراطية القوي على الضعيف، أو منطق الذكي الذي يحكم الغبي بمجموعة من الأفكار التي يزرعها في حياته، فيتعلق بها تماما كما يتعلق الرضيع بحليب أمه.

فالديمقراطية في حقيقة الأمر عبارة عن مصطلح من المصطلحات السياسية الازدواجية عند الساسة الأمريكيين، إذ يرى تشومسكي أن هذه المصطلحات لها معنيين: معنى معجمي متعارف عليه، ومعنى إيديولوجي يخدم مصالح القوي.¹

حيث أشار تشومسكي إلى ذلك في الكثير من الكتب والمقالات التي كتبها، بل وفي الكثير من اللقاءات المباشرة مع الصحافة، بل أكثرها شدة وشراسة هي تلك التي اتهم فيها النظام السياسي الأمريكي بأنه يماثل الأنظمة الشيوعية التي ظهرت في الكثير من الدول حديثة الاستقلال.

من هذه الحوارات العديدة التي أشرنا إليها حوار مع غابور شتيمغارت* من مجلة شبيغل الذي كان سؤاله كالتالي:

1 - تشومسكي، نعوم: ماذا يريد العم سام؟، تر: عادل المعلم، دار الشروق، القاهرة، ط.1، 1998، ص، 55.
* غابور شتيمغارت (من مواليد 14 يونيو 1962 في برلين) هو صحفي ومؤلف ألماني. ترأس مكتب برلين لمجلة دير شبيغل الألمانية في برلين من عام 2001 إلى نهاية يونيو 2007، ومن ثم عمل في مكتب المرأة في واشنطن من إبريل 2010 إلى ديسمبر 2012. كان شتيمغارت محرر لصحيفة هاندلسبلات. في أكتوبر 2012 تم تعيينه لمجلس الإدارة من أربعة أعضاء من مجموعة النشر لصحيفة هاندلسبلات.

"شبيغل: إذا هل يمثل لك الجمهوريون والديمقراطيون نفس البرنامج السياسي لكن مع اختلافات طفيفة؟

تشومسكي: طبعاً هناك اختلافات لكنها ليست جوهرية. يجب أن لا يكون هناك أي وهم لدى احد. الولايات المتحدة فيها أساساً نظام الحزب الواحد والحزب الحاكم هو حزب مشترك.¹

أي أن تشومسكي يرى في السياسة الداخلية التي تمارس على الشعب الأمريكي نوع من التخدير أو التزييف والتزوير، حيث حاربت الولايات المتحدة الأمريكية ولعقد من الزمن أنواع الأنظمة المخالفة لسياساتها كالأشتركية المبنية على الفكر الشيوعي الذي يعتمد على نظام الحزب الواحد، ولكنها هي في حد ذاتها تستعمل هذا النوع من النظام، إلا أنها تستعمله بطريقة مختلفة تماماً، فالدول التي كانت تعتمد نظام الحزب الواحد، كان غالب حكامها من الطبقة العاملة الفقيرة، لكن حكام الولايات المتحدة على العكس من ذلك هم الأثرياء والأغنياء، وبالتالي هم أصحاب المصالح.

هذا فعلاً ما أكدته تشومسكي عندما تحدثت عن الساسة الأمريكيين و سعيهم لإعلاء شأن الديمقراطية في الداخل قبل الخارج، أي في أمريكا، حينما قال:

"> قطاع المال والأعمال يبسط سيطرة مطلقة على آلية الحكم < (روبرت رايب)، مسترجعاً هنا ملاحظة وودرو ويلسون التي أدلى بها قبل أيام من تسنمه سدّة الرئاسة، وفيها > أن سادة الحُكم في الولايات المتحدة هم الرأسماليون والصناعيون الأميركيون مجتمعين<".²، وهذا اعتراف من رئيس للولايات المتحدة الأمريكية نفسه، أن الحكم حكم الأغنياء والأثرياء فقط، أما شعارات الديمقراطية المفترطة تلك فهي كما قلنا سابقاً، شعارات تخديرية تنويمية ليس لها أساس من الصحة إلا السعي وراء المصلحة والفائدة.

1- تشومسكي، نعوم: أشياء لن تسمع بها أبداً... (م، س، ذ)، ص، 47.

2- تشومسكي، نعوم: الدولة الفاشلة، تر: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ط (دون طبعة)، 2007، ص، 253.

هذا الموقف الذي يتبناه تشومسكي قد أكد عليه في العديد من الحوارات واللقاءات الصحفية كما أشرنا، وقد جمعها تشومسكي في كتبه العديدة، ويمكن أن نضيف كتأكيد لهذا الموقف الحوار الذي جمعه بـ ديفيد بارسمين* (David barsamian) حيث قدم بارسمين سؤالاً لتشومسكي حول الديمقراطية في الولايات المتحدة، فكان فحوى السؤال كالتالي:

- تعتبر الديمقراطية في الولايات المتحدة شكلية، لكن ما هو مضمون هذه الديمقراطية من حيث المشاركة الشعبية؟

- وقد أجاب تشومسكي على هذا السؤال كما يلي: الشعب يشارك في اختيار السياسة العامة فقط، وهي مشاركة هامشية جداً.¹

وبالتالي فهو نفس الرأي الذي قال به تشومسكي من قبل، فالديمقراطية في الولايات المتحدة هي شكلية فقط، بحيث تشارك الجماهير في الدوام الديمقراطية لتختار ممثلها دون وعي، وتختار من سبق واختارته لهم طبقة النخبة.

ويمكننا أن نستشهد أيضاً برأي والتر ليمان الذي عرضه تشومسكي في كتابه ماذا يريد العم سام؟، حين تحدث عن الأزواجية في المصطلحات السياسية، حيث قدم لنا تشومسكي مثلاً عن ذلك لما تحدث عن الديمقراطية التي تعني حسبه "اشتراك الشعب في إدارة شؤنه"، في مقابل مصطلح الديمقراطية عند ليمان الذي يعني "نظام تتخذ فيه صفوة رجال الأعمال القرارات، ويشاهد عامة الناس ذلك بدلاً من أن يشاركوا فيه".²

ويمكن أن نشير هنا إلى ما حاول ديفيد بارسمين أن يوضحه من خلال حوار مع تشومسكي والذي تم التطرق إليه سابقاً، فقد حاول بارسمين أن يشير إلى أن أصحاب طبقة

* ديفيد بارسمين: من مواليد 1945م أمريكي ذو أصول أرمينية، مذيع وكاتب، وهو مؤسس ومدير إذاعة البديل.

1 - CHOMSKY, Noam: Secrets Lies and Democracy, Odonian Press, Tucson, Arizona, (USA),

1994, p, 569.

2 - تشومسكي، نعم: ماذا يريد العم سام؟، المصدر والصفحة نفسها.

النخبة حاولوا أن يحافظوا على مصالحهم بأي وسيلة كانت، فأباحوا في ذلك كل شيء حتى القتل، وأشار المحاور إلى أن أحد ضحايا هذه الطبقة هو الرئيس الأمريكي جورج كنيدي.

وقد كان سؤال بارسمين كالتالي: منذ اغتيال كندي سيطر أصحاب المصالح على الديمقراطية، فهل تغير هذا مع إدارة كلنتون؟

فأجابه تشومسكي قائلاً: أولاً كان كندي من مؤيدي رجال الأعمال والمصالح، ولم يؤثر اغتياله كثيراً، هذا التغيير الذي تحدث عنه كان مع الرئيس نيكسن 1970، أما كلنتون فهو أساساً من مؤيدي قطاع الأعمال وأصحاب المصالح.¹

ويعني هذا أن رجال الأعمال والمصالح لا يؤثر عليهم أحد، وذلك لسبب بسيط وهو أن رؤساء الولايات المتحدة هم من هذه الطبقة، وبالتالي فهم مجموعة من القراصنة يحكمون غالبية الشعب الأمريكي.

بمعنى هناك فارق شاسع بين المصطلح المستعمل أو الشعار الذي تقدسه وترفعه السياسة الأمريكية، والواقع الذي من خلاله يتم تطبيق هذا الشعار، وهو الأمر الذي يسعى تشومسكي لتوضيحه.

ويرى تشومسكي أن اللعبة الديمقراطية تقتضي شرطاً أساسياً حتى تكتمل وهو التعليم، لذلك تمحورت الكثير من آرائه حول مدى تأثير التعليم في خدمة مصالح النخبة التي تنادي بالديمقراطية والحرية والعدالة.

ويذهب تشومسكي في عرض رأيه حول هذه القضية إلى أصلها، حيث يرى أن هذا الموضوع يحيلنا مباشرة إلى أعمال جون ديوي الذي خصص جزءاً كبيراً من حياته للتربية والتعليم، ولما نتحدث هنا عن جون ديوي فنحن نعلم جيداً من هو جون ديوي، وما هي مواقفه، ما دام أنه أحد أهم وأبرز الشخصيات التي أسست المذهب البراغماتي الذي يجعل

1 - CHOMSKY, Noam: Secrets Lies and Democracy, Ibid, p, 571.

من المنفعة والمصلحة المادية الملموسة أساساً له، ورغم أن الفكر البراغماتي لم يكن واضحاً في معالمه النفعية، إلا أنه من الواضح أن المنفعة التي تحدث عنها البراغماتيون هي منفعة النخبة المسيطرة ومصالحهم، وهو الذي أشرنا إليه سابقاً.

ولا يخفي تشومسكي تماماً تأثيره الكبير بآراء وأفكار جون ديوي في مرحلة تكوينه، والتي يقر بأنها مرحلة هامة في حياته.

ويعرض لنا تشومسكي موقف جون ديوي من ضرورة إصلاح التعليم، حيث يرى أن الهدف الأساسي من الإنتاج ليس كما يعتقد الناس هو إنتاج أكبر قدر ممكن من البضائع، وإنما هو إنتاج أناس أحرار ومشاركين مع بعضهم البعض في مفهوم المساواة، وهذه هي الديمقراطية.¹

بمعنى أن الديمقراطية الصحيحة هي التي يكون فيها الاستثمار الحقيقي ليس هو الاستثمار في المادة، وإنما هو الاستثمار في الطاقات البشرية من أجل بناء مجتمع أقوى من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية...

كما تناول تشومسكي موضوع الديمقراطية أيضاً من وجهة نظر برتراند راسل الذي يرى أن الديمقراطية تكمن في ضرورة تعليم المجتمع وتهذيبه وتنقيفه، وهدف التعليم الأساسي حسبه هو إعطاء إحساس بقيمة الأشياء دون محاولة السيطرة عليها، الأمر الذي يؤدي إلى خلق مواطنين حكماء لمجتمع حر.²

الواضح هنا أن راسل دعا إلى تجنب فن السيطرة والهيمنة الذي تقوم به طبقة النخبة، واعتبر أن الديمقراطية تتبنى على التعليم الصحيح الخلاق المنتج.

1 – Mecedo, Donald: Chomsky on MisEducation, Rowman and Littlefield Publishers (INC), Lecture at Loyola University, Chicago, 19 October 1994, p, 37.

2 – Ibid, p, 38.

وبمقارنة هذين النموذجين الذين قدمهما لنا تشومسكي نجد أنه لا يوجد فرق كبير بينهما، فكلاهما يوجهان التعليم والتربية في فن الديمقراطية لفائدة المجتمع من خلال بناء إنسان مبدع وبنّاء، لكن هذا الأمر نجح في استغلاله جزء من المجتمع فقط وهم طبقة النخبة، فنجد أن التعليم الصحيح والقوي يحصل عليه أبناء هذه الطبقة، في حين تم استغلال التعليم بطريقة عكسية على باقي المجتمع من خلال التكاليف الباهظة التي تفرضها النخبة على التعليم، إذ نجد أن معدل كبير من المجتمع الأمريكي والمجتمعات الأوروبية الغربية خصوصا مدان بديون كبيرة جدا، يبقى الفرد الواحد منهم يقضي دينه طوال حياته ولا ينتهي منه، فمثلا حجم الديون على الفرد الواحد الذي ارتاد الجامعة في أمريكا تبلغ 40 ألف دولار وهو مبلغ كبير جدا لا يقدر أفراد الطبقات المتوسطة والضعيفة تسديده.

كما تشتهر الولايات المتحدة بضخامة الاستهلاك الذي يمثل أكبر الأسباب التي أدت لتراكم الديون على العائلات الأمريكية، حيث وعلى سبيل المثال تعتبر الولايات المتحدة أكبر مستهلك للطاقة في العالم، إذا اعتبرنا أن مقياس التحضر هو مدى استهلاك الدول للطاقة، فقد نشرت القناة الفرنسية (TV5) شريطا مصورا عن استهلاك الطاقة النقية (الكهرباء) في مدينة أمريكية واحدة وهي مدينة لاس فيغاس، وأثبتت الدراسة أن استهلاكها يفوق استهلاك العديد من الدول الإفريقية، وهذا على مستوى الطاقة فقط، فما بالك بالاحتياجات الاستهلاكية الأخرى الضرورية والكمالية للأسرة الأمريكية.

ومن نفس الحوار الذي تطرقنا إليه سابقا مع مجلة شبيغل فقد تحدث تشومسكي عن مخلفات الاستهلاك وآثاره السلبية على المجتمع الأمريكي، وقال أن دين العائلات الأمريكية من الطبقة الوسطى هائل، ويرجع سبب ذلك للدعاية الاستهلاكية الكبيرة التي تقوم بها الشركات ذات المصالح والمؤسسات السياسية.¹

1 - أنظر: تشومسكي، نعم: أشياء لن نسمع بها أبدا... (م، س، ذ)، ص، 44.

وبالتالي فأحد أسباب الاستهلاك الضخم في الولايات المتحدة الأمريكية يرجع بالضرورة إلى الدعاية الكبيرة والإعلانات الضخمة التي تقوم بها طبقة النخبة للمنتجات التي تنتجها شركاتها الضخمة التي تسيطر على السوق العالمية ككل.

3- رؤساء وحكام الولايات المتحدة الأمريكية في رأي تشومسكي:

نتساءل الآن من هم حكام الولايات المتحدة في رأي تشومسكي؟

لنجيب عن هذا السؤال سنعرض لما قاله تشومسكي مباشرة، وسنحاول تحليله، حيث يقول في هذا الصدد:

"يجب أن لا ننسى بأن هذه البلاد أسسها المتدينون المتعصبون. منذ جيمي كارتر. لعب الأصوليون المتدينون دورا في الانتخابات. هو أول رئيس استفاد من إظهار نفسه كمسيحي مولود ثانية. ذلك أشعل ضوء صغيرا في أذهان مدراء الحملات الانتخابية: تظاهر بأنك متعصب دينيا وبإمكانك قطف ثلث الأصوات مباشرة. لم يسأل أحد إن كان لندن جونسون يذهب إلى الكنيسة كل يوم. بيل كلينتون متدين بقدر تديني أنا يعني صفر لكن مدراء حملته استفادوا من التأكيد على أنه كان كل صباح احد يرتل أناشيده الدينية في الكنيسة المعمدانية"¹.

رأي تشومسكي هذا له ما يبرره، بحيث يظهر كثيرا التوجه الديني لحكام الولايات المتحدة في مواقفهم وفي حملاتهم المختلفة، لكن الجديد في الأمر هو اتهام تشومسكي لهم بأنهم ليسوا متدينين، أو استغلوا إظهار الوجه الديني بغية الاستفادة منه فقط، وفي الحقيقة لا أتفق كثيرا مع تشومسكي في هذا الرأي، فالمتأمل في السياسة الأمريكية يجد أن الطابع الديني متجسد في الكثير من مواقفها، خصوصا لما يتعلق الأمر بالأزمات العربية أو الشرق

1 - المصدر السابق، ص، 46.

الأوسط، أو الحرب على فلسطين، فإن النزعة الدينية تكون واضحة جدا في المواقف الأمريكية، وهي نزعة يبدو لي أنها صادقة.

ويمكن أن نستشهد هنا بما قاله جورج بوش الابن في حادثة الهجوم على برج التجارة العالمية (11 سبتمبر 2001م)، حينما قال على المباشر في وسائل الإعلام، "ستعود الحروب الصليبية من جديد"، وكان المقصود هنا ضرورة الحرب على الإرهاب، وهذا لا ينفي أن الدين يأتي قبل المنفعة والمصلحة، بحيث لم يطل الأمر كثيرا حتى غزت الولايات المتحدة العراق، وفي اعتقادي أنها حرب من جهتين: عقائدية وطاقوية.

كذلك يمكن أن نستدل على موقف تشومسكي بما قاله الرئيس السابق للولايات المتحدة رونالد ريجان لما تحدث عن خطر الشيوعية من أجل توعية المجتمع الأمريكي، أو بالأحرى توجيه رأي القطيع الضال، فكان حديثه كالتالي:

" إن الحملة الصليبية من أجل الحرية هي فرصتك وفرستي لمحاربة الشيوعية. فانضم إلينا الآن بإرسال مساهمتك ... أو انضم إلى الجماعة المحلية حيث تقيم".¹

مما سبق يتضح لنا أن المرشح الأمريكي إن لم يكن له توجه ديني فلا يحلم أصلا بتروؤس الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا يعني ضرورة التوجه الديني للرئيس ولو كان ليس متديناً حقا، من أجل الوصول إلى سدة الحكم باختيار ديمقراطي خالص، وهنا فقط تكمن الديمقراطية.

ويذكر أن أي شخص تتوفر في شروط الترشح لمنصب الرئيس المجال مفتوح له للقيام بذلك، حيث تعتبر الشروط الدستورية للولايات المتحدة أبسط الشروط في العالم الديمقراطي أجمع، فيكفي أن يكون المرشح أمريكيا بالمولد، ويكون قد سكن داخل أمريكا مدة لا تقل عن

1 - نقلا عن: تايلور، فيليب: قصف العقول، (م، س، ذ)، ص، 373.

أربع عشرة سنة، وأن يساوي أو يتجاوز عمره خمسة وثلاثين سنة، حتى يتقدم للسباق الديمقراطي.¹

وهذا طبعا إضافة إلى التوجه الديني الذي أشرنا إليه سابقا، لكن هذا ما يبدو في الظاهر فقط، حيث أكد لنا تشومسكي أن من يحكم الولايات المتحدة ليس شخصا واحدا فقط، وإنما هم طبقة النخبة الغنية التي تبسط سيطرتها على قطاع المال والأعمال، وهي الطبقة التي تتحكم في باقي المجتمع أو القطيع الضال، وتسيره وفق ما تشاء وعلى حسب ما ترى، وربما حتى داخل هذه الطبقة تكون هناك شروط أخرى غير مرئية للمتبعين، ولا يدركها إلا أصحابها.

كنتيجة لذلك؛ فقد دفع هذا كله إلى تحول جذري في شخصية الإنسان الأمريكي، حيث أصبح عديم المبادئ، بل أصبح متقلب المزاج من الشخصية لا توجد لديه أي قواعد ثابتة ومنطلقات أصلية دينية كانت أو أخلاقية أو اجتماعية أو ثقافية، لذلك فهو إنسان فاقد للسيطرة على نفسه، وبالتالي فهو خاضع للسيطرة المطلقة والدائمة للسلطة التي تحكمه، وهي سلطة الأقلية الخاصة.

1 - الأخلاق.. والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، (م، س، ذ)، ص، ص، 340، 341.

المبحث الثاني:

لقد رفعت الولايات المتحدة خلال القرن 19م شعار عزلة أمريكا بشقيها (مبدأ مونرو*) عما كان يجري حولها من أحداث سياسية في العالم خصوصا في أوروبا، وقد ساعدتها الظروف كثيرا بحيث استغلت هذه المرحلة حتى أصبحت من أقوى الدول اقتصاديا، وحين إذ أضحت دولة مصنعة لكل أنواع المنتجات، كما ازدهرت فيها الصناعات الثقيلة والحربية.

وبوقوع الحرب العظمى في أوروبا دخلت الولايات المتحدة هذه الحرب مناصرة قوات الحلفاء، وذلك طبعا للالتزامات التي كانت على رقاب الساسة الأمريكيين، ومن هنا عرفت السياسة الأمريكية منحى آخر، وهو نفس الدور الذي قامت به في الحرب العالمية الثانية، ولما جاءت الحرب الباردة لعب الإعلام الأمريكي دورا حاسما حتى أضحت الولايات المتحدة القوة رقم واحد في العالم، وقد حافظت على هذه المكانة انطلاقا من الشعارات التي تحملها دائما في العالم كالديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان، ونتيجة التدخلات المباشرة وغير المباشرة في كل أقطار العالم النامي والمتخلف وحتى المتطور.

لأول وهلة يظهر بشكل جلي وواضح أن الدور الذي تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية في العالم هو دور جد نبيل، لأنها تحافظ على الأمن والأمان العالمي، وتسعى دائما لضمان راحة الإنسان، فهل هذا صحيح فعلا؟ وما موقف تشومسكي من ذلك؟

وبمعنى آخر هل السياسة الخارجية الأمريكية في نظر تشومسكي هي مثلها مثل السياسة الداخلية أما أنها سياسة قويمة ونبيلة؟

* مونرو، مبدأ هو بيان أعلنه الرئيس الأمريكي جيمس مونرو في رسالة سلمها للكونجرس الأمريكي في 2 ديسمبر 1823م. نادى مبدأ مونرو بضمان استقلال كل دول نصف الكرة الغربي ضد التدخل الأوروبي بغرض اضطهادهم، أو التّدخل في تقرير مصيرهم. ويشير مبدأ مونرو أيضاً إلى أن الأوروبيين الأمريكيين لا يجوز اعتبارهم رعايا مستعمرات لأي قوى أوروبية في المستقبل. والقصد من هذا البيان هو أن الولايات المتحدة لن تسمح بتكوين مستعمرات جديدة في الأمريكتين، بالإضافة إلى عدم السماح للمستعمرات التي كانت قائمة بالتوسع في حدودها.

السياسة الخارجية حسب تشومسكي.

كما شهدنا سابقا أن الإعلام في الولايات المتحدة يلعب دورا كبيرا للتحكم في الرأي العام الأمريكي، وهو الوسيلة الأولى التي يعتمد عليها السياسة لبسط سيطرتهم وفق الظروف والصوارف داخل الولايات المتحدة، وهو نفس الدور تماما الذي يقوم به كذلك عالميا ودوليا، فقد استغله قادتهم لتبرير مغامراتهم، فهو يعطي طابع المعقولية للحروب التي تقوم بها الولايات المتحدة ما دام أنه يعطي صورا كحفظ السلام العالمي، وكالحرية، والديمقراطية، والعدالة، وتوفير الرخاء المعيشي للشعوب، من خلال تنوير وتزيين الحياة الأمريكية السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، بمعنى الدعاية للنظام العالمي الجديد الذي تتبناه أمريكا والذي تظهره على أنه الخلاص الوحيد للشعوب.

ونلمس هذا الترويج كثيرا في المواقف الأمريكية، والخطابات التي يروجها القادة والحكام الأمريكيين، ومن أبرز أمثلتها ما حدث إبان الحرب الباردة، حيث جعلت الدعاية من السوفيت أو الروس خطرا محدقا بالعالم، والخلاص منه يكمن فقط في يد الولايات المتحدة.

وهاهو ريجان في أحد خطبه التي ألقاها يعلن صراحة أن الإتحاد السوفيتي هو (مركز الشر في العالم المعاصر - والإمبراطورية سيئة النية)، في مقابل الولايات المتحدة التي أمرها الكتاب المقدس بحسبه والمسيح بأن تدافع عن العالم وتقاتل ضد كل أنواع الشرور السائدة فيه.¹

أي أن زعماء الولايات المتحدة وجهوا أنظار العالم عن طريق الدعاية للمساوئ والأخطار التي يحملها النظام الشيوعي وضخموا ذلك حتى أصبح هذا النظام هو الشر المحدق بالعالم في جميع النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وجعلوا من الولايات المتحدة هي الأمل الأخير لإنقاذ العالم، والحقيقة أن مصالحهم بالذات كانت في خطر.

1 - عبد السلام، شادي: الولايات المتحدة الأمريكية، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط.1، 2007، ص، 131.

ويشار إلى أن حرب الدعاية في الولايات المتحدة بدأت بصدور قانون { سميث - موندت } عام 1948م الذي يختص بكيفية إدارة الاستعلامات الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، والذي يهدف أساساً لإعطاء صورة نقية وناصعة للبياض عن الولايات المتحدة خارجياً، كما يلعب هذا القانون أيضاً على وتر الثقافة العالمية، لتقريب الفهم بين الشعوب وشعب الولايات المتحدة.¹

لكن أصل الصراع الدعائي هذا يعود في الحقيقة إلى الإتحاد السوفيتي الذي كان سباقاً في الهجوم على الفكر السياسي الأمريكي، وكان سباقاً لاتهام الولايات المتحدة وجعلها هي المعتدي على المجالات التي كان الروس يرون أنها مجالاتهم، وكان ذلك الهجوم عام 1947م عن طريق الترويج للكتب والكتيبات والنشرات والإذاعات والأفلام وهو الدور الذي قامت به لجنة الإثارة والدعاية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي، والكومينفورم.²

ومنذ ذلك الوقت أصبح العالم المتطور يعرف قيمت الدعاية والإعلام وأثرها البالغ والحساس على المجتمعات، الأمر الذي جعل الولايات المتحدة تركز كل قوتها على الهالة الإعلامية الضخمة التي تمهد لها الطريق قبل أي تحرك عسكري أو سياسي أو اقتصادي، وتزرع نوع من القبول في المجتمع الدولي.

وكما أشرنا سابقاً فإن تشومسكي يؤكد أن هذا الدور الذي يقوم به الإعلام هو دائماً في خدمة مصالح النخبة المسيطرة على بقية أطراف المجتمع الأمريكي، وخدمة أغراضها الخاصة من شركات ورؤوس أموال ضخمة مستثمرة داخل وخارج الولايات المتحدة.

وهذا هو هدف السياسة الأمريكية التي أصبحت تسعى دائماً لجلب المصلحة والمنفعة أيما كانت، وبأي وسيلة أتاحت حسب ما أكده تشومسكي، بمعنى أن منهجها في الحياة هو منهج

1 - تايلور، فيليب: قصف العقول، (م، س، ذ)، ص، 374.

2 - المرجع نفسه، ص، 375.

براغماتي خالص، منهج قائم على الفلسفة البراغماتية العملية التي هي منهج في الحياة أكثر منها فكر، وبالتالي فنواياها مغايرة تماما لما يظهر من مواقفها.

ويعتبر الإعلام أول وأهم وسيلة تمهيدية يستعملها الساسة لتحقيق مآربهم، حيث يشوه الإعلام صورة السياسات الخارجية المستهدفة بالنسبة للجماهير الأمريكية خاصة، والعالم كافة، فنجد اليوم الكثير من المبررات الواهية للغزو الخارجي، منها الحرب على الإرهاب، أو حجة الديمقراطية، والحرية، إلى غيرها من الشعارات، ولا بد لنا حتى نقارب آراء تشومسكي حول السياسة الخارجية، من أن نعرض له أهم المواقف فقط، وهذا لشساعة آرائه في هذا المجال، ونبدأ بما يلي:

1 - موقف الولايات المتحدة من الأنظمة السياسية في نظر تشومسكي:

إنبنى الفكر السياسي في الولايات المتحدة على فكر آدم سميث* الاقتصادي الليبرالي الذي يسمى أيضا بإجماع واشنطن والذي هو مبادئ تخدم السوق، وتخدم مصالح الولايات المتحدة وكبريات الشركات.

وقد حاولت الولايات المتحدة تعميم هذا النظام في العالم خصوصا في الدول الضعيفة، ويستشهد تشومسكي على هذا مما قاله مؤرخ الدبلوماسية الأمريكية وكبير مؤرخي جهاز الاستخبارات المركزية جيرالد هاينز لما قال: "تولت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية وبدافع من مصلحتها الخاصة مسؤولية الدفاع عن النظام الرأسمالي العالمي وازدهاره" ومن ذلك مثلا "أمركة البرازيل".¹

* آدم سميث (5 يونيو 1723 - 17 يوليو 1790) فيلسوف أخلاقي أسكتلندي ومن رواد الاقتصاد السياسي، اشتهر بكتابه الكلاسيكيين: نظرية الشعور الأخلاقي (1759)، والتحقيق في طبيعة وأسباب ثروة الأمم (1776) والذي عرف فيما بعد بثروة الأمم، وهو رائدة آدم سميث، وأول عمل يتناول الاقتصاد الحديث. يعتبر سميث هو أب الاقتصاد الحديث، كما لا يزال يعتبر من أكثر المفكرين الاقتصاديين تأثيراً في اقتصاديات اليوم.

1 - تشومسكي، نعوم: الريح فوق الشعب الليبرالية الجديدة والنظام العولمي، (م. س. ذ)، ص، ص، 25، 26.

لذلك : إذا تساءلنا عن العدو الأساسي للسياسة الأمريكية، فيا ترى من هو ؟

يجيب تشومسكي بأن الأنظمة الراديكالية والأنظمة الوطنية هي العدو الأساسي للولايات المتحدة الأمريكية، ذلك لأن هذه الأنظمة تستجيب إلى الضغوطات الشعبية الداعية إلى تحسين وترفيه مستوى المعيشة، وترويج الاقتصاد أو ما يُسمّى «الوطنية الاقتصادية»، أي العمل على تنمية وتطوير قطاعات الدولة في مجال أوسع من الحرية والاستقلالية.¹

وهذا طبعاً يتناقض مع رغبات وطموحات هذه المؤسسات والشركات ذات رؤوس الأموال الضخمة التي تعمل تحت كف الولايات المتحدة، الساعية إلى توفير أكبر قدر ممكن من المصلحة والفائدة، إذ تبقى رغبتها كبيرة في الحصول على أكبر قدر ممكن من المواد الخام، وفي توسيع نطاق اقتصاديات السوق الحرة، الذي يطلق عليه اسم السوق العالمية المشتركة، أي السعي إلى أمركة السوق العالمية، أو ما يعرف الآن بالعولمة أو النظام العولمي.

ولعل هذا ما دفع الكثير من المفكرين السياسيين إلى القول بضرورة تجاوز الشعارات الخلقية التي دائماً ما تنادي بها الولايات المتحدة الأمريكية، وترفعها في وجه شعوب العالم ككل، من أجل المحافظة على قوة الاستثمار الخاص، وكثافة الموارد الخام.

وقد ذكر تشومسكي من هؤلاء الدعاة "جورج كينان" * ، الذي نادى بضرورة الابتعاد عن الأهداف الغير واضحة النتائج، أو المجهولة والغامضة، التي تكون بعيدة عن الواقع المادي الملموس الذي يحقق فائدة واضحة، والتعامل مع العالم خصوصاً الدول الضعيفة والفقيرة، بمنطق "القوة المباشرة" لفرض السيطرة على كامل مواردها، وحتى على مجمل القرارات السياسية فيها، ومن هذه الشعارات التي تنادي بها الولايات المتحدة حسبه نجد (الديمقراطية،

1 - المصدر السابق، ص، 27.

* جورج فورست كينان (George F. Kennan) (ولد 16 فبراير 1904 - مات 17 مارس 2005) كان ولسنوات عضواً في قسم الشؤون الخارجية للولايات المتحدة. وكمُخطِّطٍ للسياسات الخارجية في أواخر الأربعينيات والخمسينيات، ولقد أُعتبر "مهندس" الحرب الباردة بدعوته لاحتواء الاتحاد السوفيتي. أحد أسلاف جورج كينان، كان مستكشفاً وكاتباً.

حقوق الإنسان، رفع مستويات المعيشة...)، وهي شعارات مثالية حسبما قال "كينان"، لكن هذه الشعارات ضرورية وهامة جدا في المناسبات والخطب العامة، فيجب أن تكون صورة الولايات المتحدة الأمريكية داخليا وخارجيا، صورة القوة الحافظة للسلام العالمي، التي تحمل في سياساتها حب الخير للآخرين ومساعدة العالم، وتحمل على كاهلها رعاية شعوب العالم من الظواهر السلبية، والآفات العامة المهددة لأمن وسلامة العالم، وهذا ظاهريا فقط، أما باطنيا فالفائدة والمصلحة فوق كل اعتبار¹.

وربما هذا الذي دفع الرئيس الأمريكي السابق "نيكسون" * يقول مقولته المشهورة (ليس لأمریکا أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون ولكن لها مصالح دائمة)، ليعيدها بعد ذلك "بوش الأب" نائب الرئيس "ريغان" أثناء زيارته للسودان بعد اكتشاف البترول من طرف شركة شيفرون، أين تم إيقاف استخراجها بدعوى أن السودان قد أعلن تطبيق الشريعة الإسلامية في سبتمبر عام 1983م²، أي أن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى دائما للحفاظ على مصالحها من أي تهديد أو خطر داخلي كان أو خارجي، وبالتالي فقد استعارة منطوق ميكافيلي ومقولته الشهيرة " الغاية تبرر الوسيلة".

2- ما الإرهاب في نظر تشومسكي:

يتطرق تشومسكي في الكثير من كتاباته ولقاءاته الصحفية إلى قضية الإرهاب، حيث يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت تستعمل في سياستها الخارجية وحتى الداخلية الكثير من المصطلحات كمصطلح الإرهاب، وليست وحدها فقط بل كل القوى الاستعمارية

1 - المصدر السابق، ص، ص، ص، 27، 28.

* ريتشارد ميلهاوس نيكسون (9 يناير 1913 - 22 أبريل 1994). رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابع والثلاثين (1969-1974) ونائب الرئيس الأمريكي السادس والثلاثين (1953-1961). اضطر للتحتي في بداية فترة رئاسته الثانية بسبب فضيحة ووتر غيت تحت وطأة تهديد الكونغرس بإدانتته. كان زعيما للتيار العالمي (المضاد للتيار الانغلاقي) داخل الحزب الجمهوري. كما عمل بالسابق سيناتور وممثل عن الحزب الجمهوري في كاليفورنيا.

صديق-البادي / 29948-المعركة-مع-الفيل-وليس-مع-ظله-صديق-البادي/ http://alintibaha.net/portal - 2

والمنظمات الدولية الخادمة لها تستخدم كلمة «الإرهاب الدولي»، والمغزى هنا هو تبرير المواجهات العسكرية أو المغامرات العسكرية الخارجية، وبالتالي فهذا المصطلح يستعمل كمرادف للتعبير عن «الحرب المشروعة»، هذه الحرب التي يرى تشومسكي أنها في الحقيقة حرب الضعفاء ضد الأقوياء، أو بتعبير أدق حرب المصالح، بحيث أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تحارب مع حلفائها كل من يعارضها ويقف ضد استمرار مصالحها، بل حتى من يدافع عن نفسه فيقذف حجراً أو يُطلق رصاصة على من يحتل أرضه ويسلبه كرامة مواطنيه يسمى «إرهابياً مدفوعاً».

لقد أخضعت الولايات المتحدة كل دولة من دول العالم الثالث والعالم النامي وحتى الكثير من دول العالم المتطور لسياستها، وأي معارضة لذلك فهذا يعني أنها قد عارضت الديمقراطية، وحاربت الحرية، ووقفت ضد حقوق الإنسان، وهو ما يجعل هذه الدولة عرضة لحرب أمريكية تستعمل فيها كل أنواع الأسلحة؛ مشروعة كانت أو غير مشروعة، ذلك لأن الولايات المتحدة هي راعي هذه الشعارات وحامية العالم من الشرور المختلفة، وللبرهنة على ذلك يمكن أن نستدل بالمثل الذي قدمه تشومسكي حيث يقول:

"بالمقابل إيران دولة إرهابية لأنها لم تخضع نفسها للمصالح الأمريكية. وشيء ممتع أن نرى كيف اعتبرت إيران دولة إرهابية لأنها تدعم حزب الله في لبنان الذي وصف كمنظمة إرهابية. الآن لماذا حزب الله منظمة إرهابية؟ حزب الله، مهما كان رأيك فيه، يقاتل ضد احتلال عسكري أجنبي أمرت برحيله الولايات المتحدة ومجلس الأمن منذ 22 سنة. والآن هذا ليس إرهاباً"¹.

يظهر جلياً من ذلك أن الولايات المتحدة توظف مصطلح الإرهاب كمصطلح سياسي في عدة مجالات أهمها المجال الاقتصادي الذي دائماً ما يكون هو الهدف الأساسي، أي أن

1 - تشومسكي، نعوم: أشياء لن نسمع بها أبداً... (م، س، ذ)، ص، 193.

الولايات المتحدة -وكما أشرنا سابقا- تسعى دائما إلى المال والأعمال، وبمعنى آخر المصالح والفوائد، لأن مرجعيتها بالدرجة الأولى هي مرجعية براغماتية خالصة.

وقد أكد تشومسكي رأيه هذا بعرضه للكثير من الأمثلة الاستدلالية المختلفة والمتنوعة، فمصطلح الإرهاب هذا هو مصطلح نمطي حريائي إن صح القول في السياسة الأمريكية، فهو يستعمل بطرق متعددة وفي أماكن متنوعة، والملفت من آراء تشومسكي أنه يحاول أن يؤكد لنا أن الإرهاب هو صناعة أمريكية خالصة، مبنية أساسا على النفوذ واستمرار المصالح المادية لطبقة النخبة.

ولمقاربة فهمنا هذا سنشير إلى بعض المقارنات التي سردها تشومسكي كأمثلة عن وقائع حقيقية، حيث يرى أن الدول التي تحافظ على المصالح الأمريكية وإن كانت دول غير ديمقراطية، ولا تحافظ على الحرية، ولا تصون حقوق الإنسان، فهي دول لا إرهابية، وتعامل الولايات المتحدة مع هذا النوع من الدول يكون في إطار من التبادل التجاري والاقتصادي، بل يتعدى الأمر ذلك بحيث تحصل هذه الدول بالإضافة إلى ذلك على مساعدات مادية مرحلية على حسب الظروف والحاجات.

ومن هذه الدول نختار كمثال لما قدمه تشومسكي كل من تركيا وكولومبيا، وهما دولتان حصلتا على مساعدات أمريكية ضخمة، مع العلم أن الفترة التي حصلتا فيها على هذه المساعدات كانت مرحلة حرب؛ أو إذا صح القول مرحلة إرهاب دولة.

فقد حصلت تركيا عام 1997م على مساعدات أمريكية كبيرة تمثلت في سيل غزير لأنواع الأسلحة، وهي المرحلة التي كانت تمارس فيها تركيا كل أنواع العمليات الإرهابية على مواطنيها الأكراد، إذ هجرت الملايين وقتلت وشردت الآلاف من المواطنين الفقراء، وهو الدور ذاته الذي لعبته الولايات المتحدة في كولومبيا، ذلك لما حولت دعمها الكبير من تركيا إلى كولومبيا عام 1999م، لكن هذه المرة دعمت رجال العصابات حتى صاروا جيشا الأمر

الذي أدى إلى تهجير المدنيين بالقوة، وقد كانت الأعداد رهيبية، وفي المقابل تمام وعلى وجه المقارنة صنع الإعلام الأمريكي من الرئيس العراقي الراحل صدام حسين وجه الإرهاب في العالم، لما اتهمه بممارسة عمليات واسعة من التهجير من مناطق إلى مناطق أخرى داخل العراق، قد بلغت المليون نسمة، وقد استدل على ذلك تشومسكي من مقال لجريدة نيويورك تايمز كان عنوانه "العراقيون المقتلون من أرضهم يرون في الحرب سبيلا إلى مواطنهم المفقودة"، وهو ما لم يتم التطرق إليه بالنسبة للأكراد الأتراك أو الكولومبيون المهجرون.¹

وكان الأوائل من أكراد وكولومبيون لم يهجروا ولم يقتلوا بينما الآخرين من عراقيين هجروا وقتلوا هم وحدهم في العالم، والأغرب من ذلك أن الأعداد من الأكراد الأتراك والكولومبيون كانوا أضعاف العراقيين ولكن غمهم الإعلام الأمريكي أيما غم، والسبب بسيط وواضح وهو أن المصالح الأمريكية في النموذجين مختلفة، فالدولتين الأوليتين حافظتا على المصالح الأمريكية بينما العراق التي كانت في فترة وجيزة أحد أهم الشركاء الاستراتيجيين في الشرق الأوسط، خصوصا في فترة الحرب العراقية الإيرانية أو حرب الخليج الأولى أين كانت الولايات المتحدة تدعم الطرف العراقي ممثلا بالضبط في الرئيس صدام حسين.

حيث يشار إلى أن الولايات المتحدة قامت ببيع طائرات مروحية تجاوزت قيمتها 200 مليون دولار أمريكي استخدمها الجيش العراقي أثناء الحرب الإيرانية،² لكن هذه المرة عارضت العراق المصالح الأمريكية وبالتالي أصبحت دولة إرهابية، تقودها قوة سياسية إرهابية.

لذلك فالقضية قضية مصالح لا غير، وبالتالي فما قاله الرئيس الأمريكي نيكسون صحيح، وقد تجسد تماما في هذا المثال، وربما نؤكد البراغماتية الأمريكية الخالصة هنا أيضا ومن نفس المصدر الذي استشهدنا منه سابقا (أشياء لن تسمع بها أبدا...) لكن هذه المرة كان الحوار الذي

1 - تشومسكي، نعوم: الهيمنة أم البقاء، تر: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ط، 2004، ص، ص، 64، 65.

2 - ar.wikipedia.org/wiki/

جرى في 10 نيسان 2009م مع مجلة "طهران تايمز" حيث عرض تشومسكي لرأي هنري كيسنجر* من حوار مع صحيفة واشنطن بوست عن إيران وبرنامجها النووي، حيث كان كيسنجر أحد أهم الداعمين لمشروع إيران النووي في السبعينات، وقد قال في هذا الحوار عن إيران: "(كانوا دولة حليفة) لهذا هم بحاجة إلى الطاقة النووية. لم الآن فهم ليسوا حلفاء لذا لم يبقى هناك حاجة لذلك."¹

وربما يقودنا هذا إلى تفسير الكثير من المواقف الأمريكية المخزية في العالم لعل أبرزها موقفها من القضية الفلسطينية، حيث يروج الآن في وسائل الإعلام العالمية الكبرى التي هي تحت سيطرة أمريكية طبعاً أنواع التبريرات للحرب الإسرائيلية الجارية على فلسطين بالعموم وعلى قطاع غزة خصوصاً، والكل يعلم أن إسرائيل شريك إستراتيجي جد مهم للولايات المتحدة بما أن كبريات الشركات في العالم وكبار رجال الأعمال هم يهود، لذلك فالدفاعات الفلسطينية رغم شحها إلا أنها تتعرض لحملة دعائية تشويهية كبيرة، فنجد الكثير من وسائل الإعلام العالمية وحتى بعض الوسائل العربية منها تصف منظمة حماس الفلسطينية بالمنظمة الإرهابية، وترى بأن دفاع كتائب القسام الجهادية عن فلسطين وعن أهل غزة هو خرق للقانون الدولي، وأنها تنظيم إرهابي يهدد أمن واستقرار إسرائيل.

ويقدم لنا تشومسكي دليلاً على ذلك، فالعلاقة الوطيدة التي تربط الولايات المتحدة مع إسرائيل جعلها حليف وشريك إستراتيجي قوي في منطقة الشرق الأوسط، والكل يعلم أن كبريات الشركات الأمريكية هي تحت سيطرة اليهود، وبالتالي فالعلاقة هنا هي علاقة مصالح لا غير.

* هنري ألفريد كسنجر والأصح هاينز ألفريد كسنجر (27 مايو 1923 في فورث، ألمانيا) باحث سياسي أمريكي وسياسي ألماني المولد والنشأة، كان أبوه معلماً، وبسبب أصله اليهودي هرب هو وأهله في عام 1938 من ألمانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية خوفاً من النازيين الألمان، التحق بمعهد جورج واشنطن في نيويورك، حصل على الجنسية الأمريكية عام 1948 والتحق بالجيش في نفس العام، شغل منصب وزير الخارجية الأمريكية من 1973 إلى 1977 وكان مستشار الأمن القومي في حكومة ريتشارد نيكسون.
1 - أنظر: تشومسكي، نعم: أشياء لن تسمع بها أبداً... (م، س، ذ)، ص، 20.

يبرر تشومسكي ذلك بالاعتداءات الحربية الهمجية التي تقودها إسرائيل ضد الفلسطينيين، حيث وصل الأمر بها إلى الاعتداء على كل من يحتضن اللاجئين الفلسطينيين الفارين من الموت المحتوم، كما حدث في قصف إسرائيل للاجئين الفلسطينيين في تونس ما أدى إلى وفاة 20 تونسي، و 55 فلسطيني.¹

ما يظهر من هذا المثال هو أن الولايات المتحدة لديها مفهوم نمطي لمصطلح الإرهاب، فمهما كانت أفعال الدول والحكومات وحتى المنظمات إرهابية ولا تمس بشكل مباشر أو غير مباشر المصالح الأمريكية، فهذا لا يسمى إرهاباً، ومهما تعرضت الشعوب وحتى الأفراد إلى الأعمال الإرهابية والوحشية ولم تكن تراعي المصالح الأمريكية، أو ليس لها الموارد التي تجامل بها الولايات المتحدة الأمريكية، فهذا لا يعينها كدولة نصبت نفسها حافظة للسلام العالمي، بل يتعدى الأمر ذلك فمهما اقترب حلفائها المباشرين من جرائم إرهابية شنيعة، فيعد هذا حرباً ضد الإرهاب.

ويمكننا تدعيم موقف تشومسكي هذا برأي آخر له، حيث أكد أنه عام 1995م لقي 187 فلسطيني حتفه على يد قوات الدفاع الإسرائيلي التي تحمل عبء حماية المستوطنات، وقد دافع الفلسطينيون عن أنفسهم جراء حالات الزحف الإسرائيلي، ما أدى إلى إصابات في الطرفين، فبلغ عدد القتلى 124 إسرائيلي، و204 شهيد فلسطيني، وقد أكدت التقارير الإعلامية أن إسرائيل تقاوم الإرهابيين الفلسطينيين.²

الذي يظهر من كل هذا أن الفلسطينيين وهم يدافعون عن أنفسهم من حالات الاستبداد التي كانوا يعيشونها، وحالات التهجير وهدم بيوتهم بالقوة هم إرهاب، وإرهاب الدولة الممارس في حقهم من طرف إسرائيل، يسمى حرباً ضد الإرهاب.

1 – CHOMSKY, Noam: Pirates and Emperors Old and New, South End Press, USA, 2002, 40.

2 – CHOMSKY, Noam : POWERS AND PROSPECTS, Pluto Press, London, 1996, P, 232.

كما واصل تشومسكي طرحه لهذه المسألة بإسهاب لما أورد لنا أن التقارير السياسية أكدت أن هناك مجموعة أصولية إسلامية هي حركة حماس، وهي حسب تشومسكي حركة ضد الإرهاب اليهودي الإسرائيلي، قد اقترحت على إسرائيل مفاوضات هدفها إبعاد المدنيين من دائرة الحرب، لكن رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق رابين رفض ذلك بحجة أن حماس هي عدو السلام، والطريقة الوحيدة للتعامل معها هي حرب الإبادة.¹

ومواصلة لموقف تشومسكي السابق، فإن تونس حسب رأيه تعد أحد الحلفاء المقربين للولايات المتحدة، ومع ذلك لم تحرك الولايات المتحدة ساكنة حول هذا القصف والاستهلاك الصارخ لأمن وحرية الأراضي التونسية، بل على العكس التام فقد رحبت الإدارة السياسية للولايات المتحدة بهذا القصف، على لسان وزير الخارجية الأمريكي آن ذاك "شولتس" الذي أكد في اتصال هاتفى أن القصف هذا يعتبر "ردا شرعيا على الهجمات الإرهابية" وأن الرئيس وآخرون يكونون الكثير من التعاطف للعمل الذي قامت به إسرائيل، والمقصود بالإرهاب هنا الفلسطينيون.²

وفي الحقيقة هذا شيء معلوم لدينا فالكل يعلم أن الولايات المتحدة الأمريكية لها شريك استراتيجي في الشرق الأوسط وهي إسرائيل، ونتيجة المصالح الكبرى للولايات المتحدة مع هذا الشريك فهي دائمة الوقوف إلى جانبه وفي كل الحالات.

وبالتالي فمن يقذف حجرا أو طوبا أو يرمي رصاصة دفاعا عن نفسه يسمى إرهابيا، ومن يغتصب أرض وعرض مجتمعات بأكملها ولا يعارض المصالح الأمريكية يسمى حافظا للسلام، ذلك أن أعداء الثورات العادلة هم من ورثوا مجتمعاتنا المعاصرة هذه الأفكار، فهم

1 - Ibid, P, 43.

2 - CHOMSKY, Noam: Pirates and Emperors Old and New, Ibid, P, 43.

إذ يؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى دائماً في سياستها الداخلية والخارجية إلى حفظ حقوق الإنسان، ولطالما كانت قاسية كثيراً في التعامل مع هذا الموضوع، إذ فرضت عقوبات كثيرة على دول كثيرة لم تراعي هذه الحقوق، الأمر الذي يجعل منا فضوليين تجاه معرفتها، لذلك : فما هي حقوق الإنسان التي تدافع عنها الولايات المتحدة؟

وبمعنى آخر : ما هو فهم الولايات المتحدة لحقوق الإنسان؟

يقول تشومسكي: "في مكانة بارزة بين المبادئ العليا التي كرسنا أنفسنا لها، وإلى جانب الديمقراطية والسوق، تقف حقوق الإنسان، التي صارت "روح سياستنا الخارجية". وبالصدفة، حدث ذلك في عين اللحظة التي صار فيها احتواء الاستياء الشعبي تجاه الجرائم الوحشية صعباً.¹

إلى ماذا يحاول أن يشير تشومسكي؟ إنه يحاول أن يزيل الغموض على هذا المصطلح الذي تتناوله السياسة الأمريكية بكثرة، فنجد أن خطب الساسة الأمريكيون في كل مكان في العالم لا تكاد تخلو من المطالبة بضرورة ووجوب احترام حقوق الإنسان.

لكن حقوق الإنسان هته في الحقيقة هم من يقررها حسب مصالحهم الشخصية المشتركة، فالتقارير العالمية لحقوق الإنسان واضحة للعيان، فهي لا تخدم إلا الطبقات الخاصة الذكية والمتقفة في العالم الغربي، وإن نادى بغير ذلك ضلت مطبات فكرية خاوية وشعارات جوفاء لا غير، لذلك فأكبر المنتهكين لحقوق الإنسان في العالم إن لم يعارضوا المصالح الأمريكية، هم أحفظ الناس لها، وقد قدم تشومسكي لتبرير موقفه هذا الكثير من الأمثلة، يتجلى أبرزها في عرضه لما قدمته الولايات المتحدة الأمريكية من مساعدات كثيرة إلى دول العالم خصوصاً دول أمريكا اللاتينية، حيث يرى أن العلاقة بين تدفق المساعدات الأمريكية ومجال

1 - تشومسكي، نعوم: سنة 501 الغزو مستمر، تر: مي الذبهان، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، د. ط، 1996، ص، 201.

حقوق الإنسان يشوبها الكثير من الغموض، وهي رؤية قد سبقه إليها حسبه لارس شولتز حيث يقول:

"توجد طرق لاختيار المقولات التي يتم الوعظ بها بكل ثقة. وهكذا فقد ينظر المرء في الصلة القائمة بين معونات الولايات المتحدة ومناخ حقوق الإنسان. قام بذلك الأكاديمي البارز في مجال حقوق الإنسان في أمريكا اللاتينية لارس شولتز Lars Schoultz، الذي وجد أن المعونات الأمريكية >> قد مالت للتدفق نحو الحكومات الأمريكية اللاتينية التي تعذب مواطنيها... وإلى أسوأ منتهكي حقوق الإنسان في نصف الكرة الغربي".¹

أي أن الولايات المتحدة الأمريكية تقدم مصالحها فوق كل اعتبار، إذ ما دام دكتاتوريو العالم وأكثر الناس قسوة على شعوبهم خاضعين للسيطرة السياسية والاقتصادية الأمريكية، مادام استمرارهم في مناصبهم وأماكنهم على حاله، والأدلة كثيرة في هذا الصدد.

وقد تحدث تشومسكي عن بعض الطرق التي تستعملها الولايات المتحدة للحفاظ على مصالحها، وأورد لنا دراسة قام بها كل من مايكل كلير و سينثيا أرينسن حيث أثبتا أن الشركات الأمريكية والوكالات توفر بنادق ومعدات التدريب والدعم التقني إلى الشرطة، والقوات شبه العسكرية، والقوات المشاركة بشكل مباشر في التعذيب، والاعتداء على المعارضين المدنيين.²

بمعنى أن الولايات المتحدة تشارك بصفة كلية في الأعمال الوحشية المناهضة لحقوق الإنسان، وهذا ما يؤكد عليه تشومسكي، فتصبح حقوق الإنسان مجرد شعار من الشعارات التي تنادي بها سياسة الولايات المتحدة.

1 - المصدر السابق، ص، 202.

2 - CHOMSKY, Noam: Turning the Tide, South End Press, Boston (USA), 1985, p, 247.

ونجد أن الدراسة السالفة الذكر التي أجراها لارس شولتز الرجل الأكاديمي من جامعة نورث كارولاينا (North Carolina) قد وجدت طريقها للعالمية، فأبي دارس لموضوع المساعدات الأمريكية لدول أمريكا اللاتينية سيتناول هذه الدراسة، التي بيّنت عن وجود علاقة وثيقة جداً بين المساعدات الأمريكية والإساءة إلى حقوق الإنسان في أمريكا اللاتينية¹، ثم العالم ككل بعد ذلك، وهو ما وجدناه أيضاً في مقال حامد شهاب السابق.

يمكننا أن نسختم موضوع حقوق الإنسان والحديث حوله برأي تشومسكي هو في حد ذاته، فنقول كما قال تشومسكي: " إن الولايات المتحدة هي المورد الأساسي لكل الأنظمة الاستبدادية في العالم، فهي أكبر مورد في مجال الشرطة وأجهزة السجن. وأفضل رائد في تجارة القمع الدولية "².

وبالتالي فحقوق الإنسان هي صناعة أمريكية خالصة، هدفها المحافظة على أمن واستقرار المصالح الأمريكية داخل وخارج الولايات المتحدة.

1 - <http://www.kitabat.com>, الموقع نفسه .

2 - CHOMSKY, Noam: Turning the Tide, Ibid, p, 247.

الفصل الثالث:

موقف تشومسكي من الدين والميتافيزيقا

وأهم ما يؤخذ عليه.

المبحث الأول: موقف تشومسكي من الدين والميتافيزيقا.

المبحث الثاني: أهم الانتقادات التي وجهت لتشومسكي.

الفصل الثالث:

يعتبر الدين أحد أهم ركائز أي مجتمع، ورغم أنه يمكن أن نجد تعددا للديانات في المجتمع الواحد إلا أن هناك دائما ديانة طاغية على البقية الأخرى، تكون مصدرا لبعض الأحكام وكذا العادات والتقاليد، وبالرغم من أن المجتمعات المعاصرة حاولت أن تضع فاصلا بين الحياة الدينية والحياة السياسية، إلا أنها لم تتجح كليا، وهذا الذي توصلنا إليه من خلال إمامنا بالنموذج الغربي الأمريكي الذي قدمناه، حيث لاحظنا أن السياسي الأمريكي لا بد أن يظهر نفسه كمتدين قبل كل شيء، وهو ما أشار إليه تشومسكي طبعاً، وهذا حال كل دول العالم.

وكما هو معلوم، فالدول الغربية العلمانية هي دول ذات طابع ديني هش لأقصى الحدود، فهي تمجد الحياة المادية البراغمانية على حساب الحياة الروحية، وهو ما انعكس على أغلب أطياف المجتمع الغربي، ولنا في الأزمات الاقتصادية التي هزت العالم الغربي المثل الأعلى من انتحار واختلاس وسرقة وغيرها، وهو الذي غير كثيرا الميزان الخلقى لهذه الدول.

من خلال هذا الخل الخلقى في العالم الغربي حاولنا في هذا الفصل أن نسلط الضوء على الفكر الديني والميتافيزيقي لنعم تشومسكي مادام أنه يعتبر هرما فكرياً من مفكري هذا العصر.

فهل تأثر تشومسكي بالموجات التغريبية التي مست الدين أم أنه حافظ على نقاء يهوديته؟

وبمعنى آخر ما موقف تشومسكي من الدين والميتافيزيكا، هل هو موقف دفاع وقبول؟

أم أنه موقف إنكار ورفض؟

هذا ما سنحاول أن نجيب عنه في هذا الفصل، كما سنحاول أيضاً أن نضع تقييماً عاماً للفكر السياسي والديني لتشومسكي كمبحث أخير.

المبحث الأول:

بعد أن تطرقنا لموقف تشومسكي من السياسة الأمريكية الداخلية والخارجية، بات لنا أن نتناول الآن موقفه من الدين والميتافيزيقا، ما دام أنه أقر بأن الساسة الأمريكيون لا يمكن أن يصلوا للحكم إلا إذا كانوا متشددين دينيا كما أشرنا سابقا، ومن هنا وجب لنا أن نبحث عن موقفه من الدين والميتافيزيقا في كتاباته الكثيرة، وحقيقة فإننا لم نجد له موقفا واضحا منهما، بل يكتسي الغموض والتردد أغلب آرائه في الكثير من الأحيان، كما يكسوها بالجفاء أحيانا أخرى، فنجدته يرفضهما جملة وتفصيلا في بعض مواقفه، ليعود تارة أخرى ويتحدث عنهما في آراء ومواقف أخرى.

وسنحاول بتحليلنا البسيط فك بعض الرموز التي يبني عليها تشومسكي أفكاره، وذلك بالاستعانة بآراء وكتابات المفكرين والفلاسفة من جهة، وبالتعليقات والحوارات التي أجراها تشومسكي مع محاوريه بنفسه، لعلنا نجد في ذلك حلا لموقفه من الدين والميتافيزيقا.

تشومسكي ونظرته الدينية والميتافيزيقية:

لقد تحدث تشومسكي في بعض حواراته الصحفية مع بعض الوجوه السياسية المعروفة، وبعض الأقطاب الفكرية والإعلامية المشهورة عن مسألة الدين والميتافيزيقا، وسواء أكان عن قصد أو عن غير قصد، فقد مكنتنا هذه الحوارات من ضبط موقفه نوعا ما.

ومن اللقاءات العديدة التي أجراها تشومسكي سنبداً بالحوار المثير فكريا الذي جمعه بالدكتور عبد الوهاب المسيري، والذي عرفنا به في موسوعته المشهورة "اليهود واليهودية والصهيونية"، حيث تناول المسيري الجانب الديني إضافة إلى الجانب الأدبي والفني في كتابات تشومسكي، إذ قام بتوجيه سؤال، فكان جواب تشومسكي بقوله:

"أما فيما يتصل بالدين فقد قال إنه لم يمكنه قط أن يتعامل مع فكرة الإله أو ما وراء الطبيعة و لا يمكنه أن يفهمها، وأن مناقشة مثل هذه الأمور أمر لا طائل من ورائه. وأعتقد

أن إهماله الدين والأدب والفن نابع من حتميته البيولوجية الواحدية، ولذا فهو يؤثر الابتعاد عن الحقول المعرفية التي يمكن أن تثير له أسئلة تقع خارج نطاق نموذج المعرفي.¹ ومن هنا يؤكد تشومسكي رفضه التام لفكرة الدين والميتافيزيقا، اللذان لا يشكلان أي شيء بالنسبة إليه، ويعود سبب ذلك لأن تفسيراتهما هي تفسيرات غيبية، ولا يمكن التحقق منها ماديا وتجريبيا، ونحن نعلم ما للمادة والتجربة من مكانة في الغرب، وربما هذا الذي جعل قدرته على فهمها غير ممكنة، وما دفعه لرفضهما، وما جعله يتجنب التطرق لهما في كتاباته السياسية واللغوية كمبررين أساسيين لآرائه المختلفة، لكن أعتقد أن هذا الرأي الذي قال به تشومسكي يظل يحتاج إلى الجدية أكثر فأكثر، لأنه كان في حالة من القلق وقت إجرائه لهذا الحوار حسبما أخبرنا به المسيري.

ورغم ذلك يمكن أن نستدل على عرض المسيري هذا من خلال ما تناولناه في الفصل السابق، لما تحدث تشومسكي عن رؤساء أمريكا، وردد أن الرئيس الأمريكي بيل كلينتون لم يكن متدين تماما، وأشار تشومسكي إلى اعتقاده الديني الخاص في هذا الاستشهاد لما قال: (بيل كلينتون متدين بقدر تديني أنا يعني صفر)².

وهذا يعني أن تشومسكي ينكر تماما أن له حياة دينية، وبالتالي فحسب ما قال يمكن أن نقول عنه أنه إنسان ملحد ينكر بشكل جازم وجود الله، كما ينكر الحياة بعد الموت، وسنرى إن كان تشومسكي قد حافظ على ذلك أم لا.

بعد أن عرضنا للحوار الذي تقدم ذكره بين عبد الوهاب المسيري ونعوم تشومسكي، بما أن هذا الحوار يمثل اللقاء الوحيد الذي تحدث فيه عن الدين والميتافيزيقا مع مفكر عربي، أن لنا الآن أن نذهب لحواراته الفكرية التي أجراها، وهي متناثرة في الكثير من المواقع العالمية،

1-

<http://www.elmessiri.com/encyclopedia/JEWISH/ENCYCLOPID/MG3/GZ2/BA12/MD15/M0369.HTM>

2 - تشومسكي، نعوم: أشياء لن نسمع بها أبدا... المصدر نفسه، ص، 46.

ومن هذه الحوارات نجد اللقاء الذي جمعه بالصحفي والكاتب الأمريكي ديفيد برسامين* (David Barsamian) والتي نشرها تشومسكي في أحد كتبه، حيث طرح برسامين بعض الأسئلة التي تمس موضوعنا هذا مباشرة، ومن هذه الأسئلة ما يلي:

"ديفيد: هل تعترف بالحياة الروحية؟

تشومسكي: ماذا تقصد بالحياة الروحية هل تعني حياة الفكر والتفكير والأدب، أو حياة الدين؟ إنها مسألة مختلفة.¹

يظهر لنا أن لتشومسكي مفهوم خاص حول الحياة الروحية غير المفهوم الشائع والعام الذي يفهمه كافة الناس، حيث يعتقد معظم الناس حتى الكثير من المتقنين منهم أن الحياة الروحية تعني الحياة الدينية مباشرة، وربما سنواصل عرض هذا الحوار حتى تتضح رؤية تشومسكي أكثر.

ديفيد: البعد الروحي من حيث عامل الدين.

تشومسكي: بالنسبة لي البعد الروحي ليس هو الدين والاعتقاد غير العقلاني الذي هو ظاهرة خطيرة، وأنا أحاول أن أتجنب بوعي الاعتقاد غير العقلاني، وأعتقد أن الدين هو ظاهرة لكل الناس على العموم ويمكننا فهم ذلك، لأنه يجعلهم أقوياء من حيث الشخصية، ويقوي بينهم أواصر الارتباط والتضامن والتي هي غالباً عناصر قوية جداً، كما يمكن أن يكون رأي هذا غير صحيح، ولكن موقفي هو أننا يجب أن لا نستسلم للاعتقاد غير المنطقي.²

* ديفيد برسامين : من مواليد 1945 وهو صحفي ومذيع وكاتب اشتهر بالحوارات التي أجراها مع نعوم تشومسكي، والتي تم نشرها في شكل كتاب وترجمت إلى عدة لغات.

1 - Chomsky, Noam : Chronicles of Dissent Interviewed by David Barsamian, New Star Books Vancouver, Canada, First printing, 1992, P, 118.

2 - Op, Loc.Cit.

على العموم يبدو أن موقف تشومسكي هذا ينتابه نوع من التردد، حيث نلمس بعض من القبول في هذا الرأي، وكأن تشومسكي لا يظهر موقفه الحقيقي من الدين، أو على الأقل تأثره بيهوديته، وآمل أننا سنجد في حواراته ما يشبع فضولنا.

ربما لتحقيق مبتغانا سنحاول أن نركز على الآراء التي نشرها تشومسكي بنفسه في مدوناته المختلفة، ومن هؤلاء سندرغ حوارته مع أحد محاوريه وهو دارين بيلز Darrenn (Bills)، لسرد أهم أفكار تشومسكي الدينية سنتناول أهم الأسئلة التي طرحها بيلز عليه، حيث كان سؤال لبيلز المبدئي يمس بشكل مباشر لب الموضوع، وقد وجهه له على الشكل التالي:

ما تعريفك للرب؟

فكان جواب تشومسكي قاسيا جدا على أسماع بيلز وكل مسيحي يحترم دينه ويقده، وذلك لما تساءل تشومسكي أولا كيف أعرف الرب؟ ليجيب لا أستطيع أن أعرفه. ثم ينتقل بعد ذلك مباشرة إلى توجيه نقد عنيف جدا للمسيحية، حيث رأى أن فكرة الألوهية في الثقافة التقليدية المعروفة فهمت أفهاما مختلفة ومتعددة، وذلك يعود حسب الكتاب المقدس "الإنجيل"، فكيف ذلك؟

يرى تشومسكي أن الكتاب المقدس في أساسه شرك، وهو مبني كذلك على دعوة الرب المعبود عند المسيحيين للكفر بالآلهة الأخرى، كما يطالبهم ببذل كل ما لهم من أجل تدمير كل من لا يدينون بدينهم تدميرا وحشيا للغاية.¹

ربما كان المقصود بكلمة شرك هنا حسب تشومسكي، أن المسيحية تعتبر أن الله تعالى ثلاثة، والمتمثل كما أشرنا سابقا في الأب والابن والروح القدس، وفهم الرجل المسيحي للإله يختلف فأغلبهم يوجه دعاويه وابتهالاته وتمجيداته وتسيبحاته للمسيح عيسى بن مريم، وبعضهم يوجهها للأب والمقصود هنا الرب وهم قلة قليلة جدا، حتى أن الكثير من هؤلاء

1 - Noam, Chomsky : (Definition of God), Interview with Noaw Chomsky, 17, 05, 1998. (www.Lbbs.org)

القلة غيروا دينهم إلى الإسلام حسب ما تناقلته بعض وسائل الإعلام في الوطن العربي، في حين نجد أن البعض يمجّد الروح القدس أي المَلَك جبريل، وحتى مريم البتول لم تسلم من العبادة عند بعضهم الآخر، وربما من هنا كان منطلق وصف تشومسكي للمسيحية بأنها شرك، كما أن اعتباره للمسيحية أنها ديانة تدميرية ووحشية، فأرى أن لهذا الوصف بعدين مختلفين: الأول هو ما لاحظته تشومسكي من أفعال تدميرية للكنيسة في مرحلة العصور الوسطى، وهو الذي تشبّع بدراسة الإرث الفكري والفلسفي لهذه الفترة، والبعد الثاني سياسي مادام أن الدول الغربية وإن كانت ترفع شعارات الحرية، والديمقراطية، وحقوق الإنسان، إلا أنها في حروبها هذه دائماً ما تكون الغاية الثانية بعد المصالح، هي البعد الديني، كما حدث في حرب العراق وما فعلته البعثات التبشيرية المسيحية لمحاولة لتصير أطفال العراق، أو ربما نستدل بغضب الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن في حادثة برج التجارة العالمية، لما صرح قائل: "ستعود الحروب الصليبية من جديد".

ولم يكتفي تشومسكي بهذا بل رفع حدة الهجوم النقدي على المسيحية، لما اعتبر أنه من الصعوبة بمكان العثور على نص أكثر وحشية من الإنجيل أو الكتاب المقدس، كما وجه اتهاماً آخر شديد لشريعة الكنيسة ودورها السلبي في أوروبا، حيث اعتبر أنها كانت أكثر عنفاً وتدميراً من الرب في حد ذاته الذي أمر أن يعبد في هذا الكتاب.¹

يوميّ تشومسكي في هذا المجال إلى الفترة القاهرة والمظلمة التي عرفت أوروبا في العصور الوسطى والتي أشرنا إليها الآن، وذلك لما عاشت أوروبا أسوأ مراحلها التاريخية أين لعبت الكنيسة دوراً سلبياً للغاية، حيث كانت تعذب وتقتل كل من يخرج عن طاعة قساوستها ورهبانها، ولم يسلم من ذلك حتى حملي شعلة العلم من مفكرين وفلاسفة وعلماء، لذلك فقد كان الأثر بليغاً على الفرد والمجتمع، مادام أن الكنيسة قطّعت وفككت كل الروابط الدينية التي تربطها بهما معاً، ولعل هذا ما يبرر موقف تشومسكي منها، وموقفه أيضاً من الدين والميتافيزيقا.

1 - الموقع نفسه , www.Lbbs.org

هذا الكلام لم يمر هكذا على محاور تشومسكي، بل علق عليه، فكان تعليقه بأن وصف تشومسكي بأنه "شخص ملحد" وبأن إدانته للدين هي إدانة فضيحة جداً.¹ والحق أنه فعلاً إذا تناولنا رأي تشومسكي هذا كما هو فإننا نجد يرفض الفكر الديني والميتافيزيقي تماماً، ورفضه هذا مبرر لأنه مفكر وعالم لغة متشبع بثقافة العصور الوسطى وآراء فلاسفتها أمثال ديفيد هيوم الذي أشرنا إليه سابقاً، وبالتالي فمن الطبيعي أن يتخذ تشومسكي هكذا موقف من الدين، وهو الذي درس الإرث الأوروبي في العصور الوسطى بكثرة، ووقف على كوارث الدين المسيحي وآفات الكنيسة في ذلك الوقت وبعده، وعاش مراحل الهجرة عن كثر بعد أن كان يقطن ووالديه في فلسطين، ليهاجر إلى الولايات المتحدة خوفاً من الحروب التي كانت بين المسلمين واليهود، وهو صراع ديني قديم، ولهذا كان الأثر بليغاً جداً عليه.

وربما يكون السبب شيئاً آخر، وهو العداوة الأزلية بين الدين المسيحي والدين اليهودي، فموقف اليهودية هو الرفض التام للديانة المسيحية، بل اعتقادهم في المسيحية هو أكثر شر من غيرهم فالفكر اليهودي يعتقد في المسيح عيسى عليه السلام أنه ابن زنى، لذلك انتقاداتهم دائماً تكون قاسية ولاسعة، وربما يكون تشومسكي تأثر بأصله اليهودي، أو له خلفية يهودية تحكمه دون أن يعيها.

لعل هذا ما جعل تشومسكي يؤكد في كل مرة أن الطابع الديني لديه منعدم تماماً، فهو غير متدين ولا يدين بأي دين أصلاً، لذلك كان توجهه قوي نحو السياسة رغم أنه عالم لغة، والمعلوم أن اللغة تحمل كثيراً من التوجهات الدينية والتفسيرات الميتافيزيقية.

لكن قد ننصب له دينا بما أنه لا يدين بأي دين، ويكون ذلك انطلاقاً من رأيه هو في حد ذاته عن نفسه، وهذا يعود إلى أحد الملتقيات التي أجراها من خريف 2006م في كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد تناول هذا الملتقى بعض الإشكاليات الفكرية والفلسفية الدينية، حيث كان لتشومسكي آراء هامة نذكر منها أنه حاول أن يوضح توجهه العقائدي

1 - الموقع نفسه.

والديني، فكان تحليله مثيرا حقا، حيث وصف نفسه بأنه "ملحد علماني"، لينفي عن نفسه صفة الإلحاد مباشرة بعد ذلك، متحججا بعدم قدرته على فهم ما هو مطالب بأن لا يؤمن به حتى يكون ملحدا.¹

والملاحظ في رد تشومسكي أنه وصف نفسه بأنه ملحد علماني، وكما هو معلوم فالملحد هو الذي لا يدين بأي دين ولا يعبد أي إله، أو كما نجده في الموسوعة الفلسفية للاند: الإلحاد هو: " عقيدة قوامها إنكار وجود الله "2.

أو إذا أردنا التفصيل أكثر فربما نقول: الإنسان الملحد هو الذي يجعل من الحياة البيولوجية أساسا لوجوده، فينتهي وجوده بانتهاء حياته البيولوجية. وهذا يحيلنا إلى تساؤل هو: كيف لتشومسكي وهو عالم لغة ومن وجوه الثقافة العالمية في القرن 21، ومنبر من منابر الفكر السياسي أن يعجز عن فهم معنى الإلحاد؟ الأمر الذي يحيل ويجعل الغموض يكتنف مواقف تشومسكي حول الحياة الدينية والميتافيزيقية.

سنحاول الآن أن نوضح هذا الموقف الغريب من تشومسكي بعرضنا لحوار آخر جمعه مع أحد الوجوه الإعلامية العالمية، نشر في مقال على الموقع الرسمي لقناة BBC، حيث سنحاول أن نقارن بين هذين الحوارين ونستخلص أهم النقاط بينهما.

لقد دار هذا الحوار بين كل من تشومسكي الملحد العلماني الذي لا يعرف معنى الإلحاد - كما وصف نفسه بنفسه - و الناقد الفلسفي المختص في اللاهوت والصحفي المشهور وليام كراولي* (William Crawley) ، إذ وجه كراولي سؤالا يتمحور حول رأي وموقف تشومسكي من الملحد الجدد في أوروبا والولايات المتحدة، فكان رده قطعيا بأنه

1 - Noam, Chomsky : (Beyond Belief), Salk Institute, La Jolla, California, USA, 5-7 November 2006.

2 - لاند، أندريه: موسوعة لاند الفلسفية، (م، س، ذ)، ص، 107.

* - وليام كراولي (William Crawley): صحفي ومذيع إنجليزي ولد في بلفست بإنجلترا سنة 19 ، تحصل على شهادتين في الدراسات العليا من جامعتين مختلفتين الأولى في إنجلترا والثانية من جامعة نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية، في كل من الفلسفة وهي شهادة دكتوراه، وكذلك في الثيولوجيا "علم اللاهوت"، وهو يشتغل حاليا في القناة المشهورة BBC، يقدم في برنامجه لقاءات وحوارات متنوعة منها السياسية والدينية والإخبارية والأخلاقية والثقافية وغيرها...

يذم ويكره هذه الطائفة، وكانت حجته في ذلك هي أنه ليس من شأنه أن يوضح هذه المسألة للناس، ورأى أنه من الخطرسة بمكان أن يلقي محاضرة في فلسفة العلوم ليوضح فيها انتهاء الحياة لأم فقدت ابنها وتتمنى أن تراه في الجنة.¹

ويظهر هنا أن موقف تشومسكي من الملحدون الجدد لم يكن واضحاً ومبرراً بشكل كافي، فالملحدون الجدد هي الطائفة التي ظهرت حديثاً حيث تضع كل جهودها من أجل تكذيب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، دون غيره من الأنبياء والرسل، وبالتالي هم حسب اعتقادي الخاص نوع جديد من المباشرين المسيحيين واليهود، فإذا قارنا موقف تشومسكي هذا مع وصفه لنفسه، نجد أنه وسم نفسه بالملحد ثم نفى ذلك بحجة عدم معرفته معنى الإلحاد، ثم في موقفه الثاني أقر بأنه لا يحب الملحدون الجدد ولكن لم يبرر ذلك، ومنه يظهر ذلك الغموض من جديد في موقفه من الدين والميتافيزيقا، ويظهر مرة أخرى على أنه يخفي شيئاً من وراء مواقفه البارزة، وكأنه يخفي يهوديته من وراء إلحاده.

المتأمل في مواقف تشومسكي يظهر له للوهلة الأولى أنه ملحد لا يؤمن بأي دين، حيث أن حركة التغريب الديني التي تعرض لها تشومسكي - والتي كانت شديدة - لم تترك له أي أثر ديني بداخله، وهدمت كل المبادئ الروحية والعقائدية فيه، هذا ما يظهر على العموم.

لكن يمكن أن نسرد هنا مواقف أخرى لتشومسكي ربما تقلل من حدة حكمنا عليه، فقد أشرنا سابقاً إلى أن موقفه من الدين والميتافيزيقا يشوبه الغموض، فهو يتراوح بين النفي والإثبات، بين الرفض والقبول، ففي حوار له مع بيل مويرز وهو صحفي أمريكي، طرح عليه الإشكالية الهوبزية بطريقة ماكرة إذ سأله فقال:

« هل تعتقد أن البشر يحنون بطبيعتهم للحرية... أم أنهم على استعداد لأن يخضعوا للنظام مقابل الأمن والأمان؟ » فكان رد تشومسكي قاطعاً: « هذه مسائل خاصة بالإيمان لا

1 - William, Crawley : (Chomsky on religion and the ethics of war), Uk Time, UK, 25, 10, 2009.

المعرفة، تُوجّه آمالك نحو ما تؤمن به.. وأنا أحب أن أؤمن بأن الناس قد وُلدوا أحراراً، ولكنك إن طلبت مني دليلاً على ذلك لما أمكنني أن أعطيك إياه»¹.

وكما هو معلوم فإن مصطلح الإيمان هو مصطلح منبعه ديني خالص، بل لا يكون هناك دين أصلاً دون إيمان، وقد استعير استعماله في أماكن وظروف متعددة، ويصعب كثيراً أن يتحدث الناس عن الإيمان دون أن يكون لهم إيمان بقوى غيبية، أما تشومسكي فهو عالم لغة قبل أن يكون سياسياً فكيف له - وهو الذي لا يؤمن بشيء - أن يستعمل مصطلح الإيمان؟

وبالتالي يظهر لنا أن هناك قبول نسبي للدين والميتافيزيقا لدى تشومسكي، فهو لا يرفضهما رفضاً مطلقاً وإنما لديه استحسان لبعض أفكارها، ولعل هذا الذي جعل مويرز يسأله في دهشة:

"أنت تتحدث عن الإيمان، فهل «تؤمن» بالحرية؟"

فأجابه تشومسكي: "أحاول ألا يكون إيماني غير عقلائي، فنحن يجب أن نسلك على أساس معرفتنا وفهمنا مع تمام العلم بأن معرفتنا محدودة... ولكنه، على أية حال، إيمان خاضع لاعتبارات الحقائق والعقل".²

إذا تأملنا جيداً في هذا السؤال الذي طرحه مويرز وكذا إجابة تشومسكي، نجد أن هذا الأخير زاد المسألة تعقيداً عوض تبرير ذلك، فالواضح أن الإيمان يتعارض مع العقل، حيث أن العقل يؤمن بما يعاين تماماً، في حين ينجر الإيمان في مجمله إلا الخبايا التي لا يستطيع العقل أن ينيهاها أو يفهمها، كمايماننا بالله وملائكته مثلاً، أو الإيمان باليوم الآخر، أو الجنة والنار وغير ذلك، وبالتالي فمن الصعوبة بمكان إن لم نقل من الاستحالة أن نجتمع بين عقلانية العقل التي يشير إليها تشومسكي والإيمان الذي يحاول الهروب منه.

1 - <http://www.elmessiri.com>، الموقع نفسه.

2 - الموقع نفسه.

وكما كان شائعا في العصور الوسطى من مقولة القديس أوغسطين "آمن كي تعقل، وأعقل كي تؤمن" فأعتقد جازما أن التعقل هنا المقصود به هو التأمل في الكون، الذي يجعل المرء يدرك بعقله أن لهذا الكون خالق، كما يرتبط التعقل من جهة ثانية بالأخلاق، فسمو الأخلاق في المجتمعات، وكذا تطورها ورفيها مرتبط بمدى قوة إيمانها بمعتقداتها لا غير، ولنا في الحضارة الإسلامية المثل الأعلى.

ويمكننا تعزيز هذا الرأي أيضا بالعودة إلى حوارنا السابق الذي جمع تشومسكي مع محاوره بيلز، أين أكد بيلز أن هناك موقف آخر لتشومسكي حول الدين رغم ما تقدم منه من انتقاد فضيع، حيث يعترف تشومسكي في ثنايا كلامه أن الدين قد يكون قوة من أجل الأفضل للمجتمعات، وذلك بما يقدمه لهم من تضامن، وتوفير السعادة والراحة للناس، وقد أكد بيلز أن تشومسكي في وقت قريب جدا من هذا الحوار قد مدح بعض جوانب الكنيسة الكاثوليكية، خصوصا سياستها الراديكالية المتمثلة في محاولة تعزيز التعاون وتقوية الروابط الإنسانية بين جنوب ووسط المجتمع الأمريكي.¹

الموقف هذا الذي سرده لنا بيلز يمكن أن نسنده أكثر برأي تشومسكي في حد ذاته، أين نجد أنه في نفس الملثقى السابق الذكر، تطرق تشومسكي إلى موضوع أهمية الديانات في المجتمعات المختلفة، فرأى أنه لا يوجد شك في أن الديانات لها فائدة عظيمة، وتكمن هذه الفائدة في أنها تسمح لمؤيديها بتضليل أنفسهم من خلال التفكير في وجود معنى لحياتهم²، لكن يعود مرة أخرى تشومسكي لموقفه الظاهر من الدين والميتافيزيقا من خلال اعتبار أن الحقيقة واضحة في هذا المجال، بمعنى رفض الدين والأفكار الميتافيزيقية.

ويشير هنا تشومسكي مرة أخرى إلى أنه لا يحاول أبدا إخراج الناس من وهم الدين والاعتقاد -كما يقول- الذي هو في نظره ضروري جدا ليعيشوا حياتهم كما هي والتي تمثل

1 - الموقع نفسه , www.Lbbs.org

2 - Noam Chomsky : (Beyond Belief), ibid.

معنى لهم، كما يرى أن هذه المعتقدات تقدم إطار لفهم أفعال الناس والحكم عليها بأنها نبيلة أو وحشية.¹

وبالتالي يظهر هنا نفس الأمر السابق، فالواضح أن آراء تشومسكي من تصريحاته المختلفة يشوبها الكثير من الغموض، فهو يرفض الاعتقاد الديني المنضم في أطر دينية وقواعد معينة، لكن يقبل الكثير من الآراء الدينية التي تخلف ورائها أثر مباشراً في أوساط المجتمع، ومنه فحكمنا عليه بأنه ملحد لا بد أن يكون حكماً نسبياً لا غير، لأنه هو في حد ذاته غير واضح ينتابه التردد والانزواء في الكثير من مواقفه حول الحياة الدينية والميتافيزيقية على السواء.

لكن رغم هذا كله، ورغم هذا التردد الذي أشرنا إليه، إلا أن البعض يصر على أن تشومسكي لا يظهر حقيقته الفكرية الحقيقية بل تتمتع مواقفه بالكثير من التلاعب والتنويم الذي يخفي من خلفه أهداف سياسية، ومن هؤلاء المفكرين نجد ما قدمه الدكتور علي حرب* في كتابه النقدي الذي تناول فيه تشومسكي من وجهة نقدية خالصة، وسنحاول هنا حصر رأي علي حرب من موقف تشومسكي الديني والميتافيزيقي، لكن قبل ذلك سنمهد له انطلاقاً من تحليلات علي حرب حول السياسة المعرفية عند تشومسكي.

حيث يرى علي حرب أن موقف تشومسكي يقوم على الاعتقاد بإمكانية الكشف عن حقيقة الواقع الخفية عن طريق أدلة عقلية ومعايير موضوعية حاسمة، وهذا الموقف حسب علي حرب يضل إدعاء علمي يخفي رغبة لاهوتية استبدادية.²

يشير هذا إلى أن علي حرب يتهم تشومسكي بأن له خلفية دينية واضحة، يحاول من خلالها تفسير الواقع تفسيراً عقلانياً ووفقاً ليهوديته الضالة، هذا يجعلني أعتقد أن تشومسكي

1 - Op. Cit.

* كاتب ومفكر علماني لبناني، له العديد من المؤلفات منها كتاب نقد النص و هكذا أقرأ: ما بعد التفكيك، ويعرف عنه أسلوبه الكتابي الرشيق وحلاوة العبارة. كما أنه شديد التأثير بجاك دريدا وخاصة في مذهبته في التفكيك.

2- حرب، علي: أصنام النظرية وأطياف الحرية، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط.1، 2001، ص، 87.

كغيره من المفكرين الغربيين المتشدددين دينيا يفعل أي شيء ليبلغ الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه، ولو لزمه ذلك إخفاء عقيدته الدينية، ولنا في الحروب التي تخوضها الكنائس خفية العبر.

يواصل علي حرب هجومه على تشومسكي بتوضيح موقفه السابق أكثر فأكثر، ويدعم اتهامه له بالتدين المخفي والإيمان بالماورائيات فيقول:

"فتشومسكي هو ذو عقل ما ورائي يجعله يؤمن بوجود ماهيات ثابتة يمكن القبض عليها بقوالنا المعرفية، بقدر ما هو ذو موقف أصولي يجعله يتمسك بالثوابت والتقاليد الفلسفية، كما يجد مراجعها لدى أفلاطون، أو لدى ديكارت وكنط".¹

ومن هنا يظهر جليا أن المواقف التي يبديها تشومسكي من الدين والميتافيزيقا، والرفض القاطع في الكثير من الحالات لكليهما، ما هو إلا تستر ومراوغة للباطن الخفي الذي هو في حقيقة الأمر متشبع تماما بهما حسب علي حرب، وهذا الموقف صراحة يستدعي منا الوقوف عنده، والتدبر والتفكير فيه.

وربما لإثبات رأي علي حرب هذا سنتطرق لأحد أهم الأسئلة التي طرحها ديفيد برسامين في حوار مع تشومسكي الذي تناولنا أجزاء منه سابقا، وقد ارتأيت أن أسرده في آخر هذا المبحث لما يخلف ورائه من استقهامات ودلالات قابلة للتحليل والتفكيك والتأويل، حيث كان السؤال كالاتي:

ديفيد برسامين: هل تستمد أي قوة من التعاليم اليهودية؟
تشومسكي: بالطبع فأنا أستمد منها جزءا كبيرا، فلقد نشأت وترعرعت وكبرت فيها، ولحد الآن أشعر بذلك، لكن إن كانت مصدر قوة أو لا فإنه من الصعوبة أن أقول لك ذلك.²
كما أشرت فهذا الحوار يخفي خلفه الكثير من الاستقهامات التي تبعت للتساؤل حول حقيقة المبادئ التي يبني عليها تشومسكي زاده المعرفي والفكري، حيث من الضروري التفريق

1- المرجع السابق، ص، 89.

2 - Chomsky, Noam : Chronicles of Dissent Interviewed by David Barsamian, Ibid, P, 119.

بين التعاليم اليهودية التي تجعل من الفرد اليهودي لحمة متينة من المجتمع اليهودي، والتي تجعله يرى نفسه أحسن من باقي البشر (شعب الله المختار)، والتي تطلق له العنان للقيام بأي شيء في سبيل الدفاع عن هته المبادئ، وبين الإنسان الملحد، الذي يكون رافضا للحياة الدينية، وناكرا لوجود الله بشكل مطلق.

وفي الأخير نصل إلى القول بأننا حاولنا بجد ضبط موقف تشومسكي من الدين والميتافيزيقا، لكننا صدمنا بحالة عدم الاستقرار الديني التي يعيشها، حتى قلنا في الأخير كما قلنا في بداية الأمر أن موقفه من الدين والميتافيزيقا موقف قلق، يكتنفه الغموض، ويمتاز بالزئبقية ولحركية، وبالتالي يمكننا أن نعتزف بالفشل في ما حاولنا أن ننجزه في بداية هذا المبحث، ونأمل أن ننجح في تحديد ذلك في المستقبل.

المبحث الثاني:

نقد مواقف تشومسكي:

أ- نقد عام:

لتشومسكي كغيره من الفلاسفة والمفكرين بعض الهفوات التي تحملها مواقفه وكتاباتة، وما هو واضح منها أشد الوضوح هي تلك الرسائل التي يبعثها تشومسكي في مواقفه - خصوصا السياسية منها - وهي في الحقيقة معروفة لدى العام قبل الخاص، وبالتالي لا حاجة لنا لمعرفة، أو قراءتها، أو التأثر بها وتبنيها.

ونسندل على موقفنا هذا ببعض الآراء والنداءات النادرة من الوطن العربي وخارجه، ممن حاولوا الوقوف في وجه الغزو التشومسكي للفكر الحديث بشتى أقطابه، ولعل أبرز هذه الانتقادات التي تسند ما قلناه ما ذهب إليه علي حرب لذلك سنعود إليه، ولكن هذه المرة لنستخلص منه أهم الانتقادات التي أدرجها، حيث يقول في كتابه ما يلي:

"لا أجدني بحاجة إلى قراءة كتاب يقع في مئات الصفحات، لكي يحدثنا مؤلفه عما مارسه الغرب، في سيرورة صعوده وتوسعه، من الغزو والتسلط والمهيب، أو الخداع والانتهاك للقوانين والمواثيق"¹.

وبالتالي فالأمور التي يتحدث عنها تشومسكي هي أمور جد معروفة ذلك لأن الإعلام الحديث اليوم تطور إلى درجة كبيرة، بحيث انتقل من لغة القلم إلى لغة الصورة، والصورة أعظم برهان.

ومن الانتقادات التي طالت تشومسكي أيضا ما يتعلق بالمستوى الفكري، حيث نجد لتشومسكي الكثير من التناقضات في أفكاره السياسية والدينية وكذلك اللغوية، وقد أكد ذلك عبد الوهاب المسيري في موسوعته السالفة الذكر، و سنجمل منها ما يلي:

1- حرب، علي: أصنام النظرية وأطياف الحرية، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط.1، 2001، ص، 84.

يجمع تشومسكي في كتاباته الكثير من التناقضات والثنائيات ومن أمثلة ذلك نجد مثلا:
- " الحرية و التَّحْكُم " فنجد أنه في كثير من الأحيان يتحدث عن الحرية التي هي من حق كل إنسان، ثم يلف على موقفه هذا بتأكيده على ضرورة التحكم الجيد وتوجيه المجتمعات.¹

الحرية التي يتحدث عنها تشومسكي سبق وأن تناولناها حيث يؤكد على ضرورة أن تكون الديمقراطية التي تتبناها الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة لابد أن تضمن الحرية المطلقة والكاملة لجميع أفرادها كالحرية في التعبير وحرية الاختيار والانتخاب والتمثيل وغيرها، لكن تشومسكي يدرك جيدا أن غالبية الأفراد في المجتمعات لا تستطيع التحكم في سلوكياتها وتصرفاتها، كما أن الكثير من الناس لا يفهمون معنى الحرية الحقيقي، مما يؤدي دون أدنى شك إلى الفوضى، والصراعات، والاختلافات التي تقسم ظهر أي مجتمع، لذلك يعود وينادي بضرورة ترشيد المجتمع والتحكم فيه وتوجيهه.

- ومن الثنائيات الواردة أيضا نجد أن تشومسكي يرى أن النظام الاقتصادي العادل هو النظام "الاشتراكي" ثم يعتقد أن "الرأسمالية" هي نظام ناجح، ونجد أنه يحث كثيرا على "التضامن والجماعية" ولكنه يرى في "تعظيم الربح والأنانية والطمع" سبيلا قويا للحياة ومن الثنائيات عند تشومسكي نجد أيضا حسب المسيري "مبدئي" وهو ضد "برجماتي".²

وبالتالي فنفس الحال السابق يتكرر بالنسبة للحياة الاقتصادية وما يتعلق بها فهو يتحدث بنوع من المثالية والكرامة والشرف حول هذه المواضيع لكنه يستفيق بعد ذلك ويعايش الواقع الحقيقي، فيرى في الحياة الصحيحة أنها تقوم على التضامن والتعاون والجماعية لكنه سرعان ما يدرك أن الطبيعة الإنسانية غير ذلك تماما فهي حياة مبنية على قانون الغاب وهو أن القوي يأكل الضعيف، سواء تعلق الأمر بالأفراد أو المجتمعات، فالمبدأ الطاغي في هذا الزمان هو المبدأ البراغماتي وبقوة، وهذا هو الواقع طبعا.

1 - <http://www.elmessiri.com>، الموقع نفسه.

2 - الموقع نفسه.

- ويوظف تشومسكي في العديد من آرائه أيضا معنى "التوازن البيئي" للحفاظ على الحياة الطبيعية، أو حياة الفطرة، وضرورة العودة إليها، ثم يعود بعد ذلك ليؤكد أهمية "استغلال البيئة". كما يتحدث عن "التلقائية" في التسيير، ثم ينقلب مرة أخرى ويؤكد ضرورة "الاتجاه نحو الترشيح والتحكم".¹

يضاف هذا الرأي طبعا لمواقف تشومسكي المختلفة حول الاقتصاد وقد تناولنا ذلك سابقا. كما يتحدث تشومسكي عن المساواة في الحقوق والواجبات، لكن يرفض ذلك ويصر على الهرمية والفروق الفردية في المجتمع الديمقراطي، هذه الديمقراطية التي يعتبرها السبيل الوحيد لحياة أفضل في الولايات المتحدة وغيرها، وهذا الأمر لحضناه من المقارنة السالفة الذكر التي عرض فيها تشومسكي لرأي جون ديوي ورأي راسل وهو رأيه بالطبع أيضا.

حيث يقر بأن الديمقراطية هي السبيل الوحيد لتهديب المجتمعات وذلك من خلال بناء إنسان مبدع خلاق دون محاولة السيطرة عليه، الأمر الذي يؤدي إلى خلق مواطنين حكماء لمجتمع حر.² لكن حتى رأيه هذا عن الديمقراطية لا يستقر عليه. فهو يؤكد أننا في عصر تحكمه الدولة "الشمولية" والمقصود هنا طبعا الولايات المتحدة التي حكمها حكم شمولي، ونجد هذين الموقفين المختلفين في قوله التالي:

"فالدعاية في النظام الديمقراطي هي بمثابة الهراوات في الدولة الشمولية،..."³

الواضح من هذا الكلام أن تشومسكي يجمع في الولايات المتحدة بين الحكيم أو النظامين، أي بين الدولة الديمقراطية و الدولة الشمولية في نفس الوقت، والمعلوم أن الديمقراطية هي التي توفر للمجتمع كامل الحرية في التعبير والاختيار وفقا لما يشاء ويريد وهو ما لا يوجد في الدولة الشمولية.

3 - الموقع نفسه.

2 - Mecedo, Donaldo: Chomsky on MisEducation, Ibid, p, 38.

3 - السيطرة على الإعلام، (م، س، ذ)، ص، 12.

- كما يدعم تشومسكي النزعة "الفوضوية" والفكر الثوري والتحرري، ليعود بعد ذلك ويؤكد أن حياة الأفراد لا تستقيم إلا تحت "هيمنة الدولة" كما يساند تشومسكي "الإمبريالية" ويدعو من جهة أخرى إلى "التحرر" من قيود الدولة.¹

- يضاف هذا الرأي طبعاً هو الآخر لمواقف تشومسكي المختلفة حول الدولة والنظام الجيد الذي يسيرها سواء كان ديمقراطياً أو غيره وقد تناولنا ذلك سابقاً كذلك.

- يصر تشومسكي على أهمية البقاء بطريقة جديرة بالاحترام ثم يعود ويصر مرة أخرى على ضرورة البقاء بأي ثمن، وفي هذا الصدد وجه عبد الوهاب المسيري نقد جاد لاذع لتشومسكي أثناء الحوار الذي جمعه بينهما في القاهرة، وقد استغرب المسيري توظيف تشومسكي لبعض المصطلحات الضعيفة وهو عالم لغة، وقد ارتأيت أن أقتبس الحوار كما هو لتوضيح آراء المسيري وهو كالتالي:

"يستخدم تشومسكي كلمة «ديسنت decent» الإنجليزية فيقول "ديسنت سيرفايفال decent survival" وكلمة «سيرفايفال survival» في الإنجليزية تستدعي إلى الذهن مباشرةً العبارة الداروينية القبيحة «سيرفايفال أوف ذا فيتسيت survival of the fittest» أي «البقاء للأصلح». والأصلح هنا هو الأقوى، ومن ثم فهو بقاء يمكن أن نسميه «إن ديسنت indecent» أي «بطريقة غير لائقة» (ومن الواضح أن استخدام تشومسكي لهذه الكلمة الضعيفة في هذا السياق، وهو عالم اللغة، يدل على محاولته تحاشي كلمات أشد قوة."²

الواضح من كلام المسيري أن تشومسكي له خلفية ما تؤثر فيه أيما تأثير، وكأنه يخفي الكثير من الأشياء خلف المواقف والحوارات الظاهرة التي يجريها، ربما سنحاول أن نظهرها هنا أو إذا قدر لنا بحث آخر.

1 - <http://www.elmessiri.com>, الموقع نفسه.

2 - الموقع نفسه.

ولتدعيم كلامنا هذا ربما نستعين ببعض الانتقادات الأخرى التي وجهت لتشومسكي، وسنذكر منها ما قدمه الكاتب والصحفي الأمريكي غلين قرينولد (Glenn Greenwald)* ، وهو انتقاد في رأي جد مهم، حيث قال:

" تشومسكي هو إنسان سافر غاضب ومنوم." ¹

ما يهمنا في هذا القول هي كلمة "منوم" حيث أعتقد أن غلين لم يستعمل هذه الكلمة جزافاً وإنما استعملها عن قناعة وتفكير ودراسة عميقة وهو الكاتب والصحفي الأمريكي الذي تناول كتابات وآراء تشومسكي بإسهاب كبير.

وكأن تشومسكي يسعى عن قصد لتبني هذه المواقف خصوصاً منها المواقف السياسية، وكأنه يسعى لتتويم قراءه، وإلا فكيف لعالم لغوي أن يقع في هذا الكم من التناقضات، إلا إذا اعتبرنا أن هذا يرجع ربما إلى أن تشومسكي في كثير من لقاءاته الصحفية ومحاضراته التي لا نهاية لها، واستضافاته العديدة، وحتى محاوراته في مدوناته عبر الانترنت مع مختلف الجماهير، كثيراً ما يتناول هذه المواضيع بالشرح والتحليل والتعقيب، وكما نعلم فإن الإنسان يتأثر بالحالات النفسية التي يمر بها والمواقف التي يعايشها فربما يكون طول الحال وهته الحالات السالفة سبب لظهور هذه الثنائيات المختلفة في الفكر الفلسفي لتشومسكي.

وما يؤكد أن تشومسكي يسعى عن قصد إلى تبني هذه المواقف، ما وجدناه في آراء علي حرب، حيث يرى هذا الأخير أن تشومسكي إنسان مخادع، يسعى هو الآخر إلا بناء ذاته الإمبريالية كما تسعى بلاده إلى زيادة توسعها، فيقول التالي:

"ومن هنا تبدو المهمة التي يمارسها تشومسكي، كمحام عن حقوق الشعوب، مهمة خادعة تجعل المجتمعات التي يدافع عن حقوقها وقضاياها تنام على قناعاتها الواهية أو تتشبث بوضعياتها القاصرة، بقدر ما تتوهم أن أزمتها هي وليدة علاقاتها مع الآخر لا غير. بالطبع

* غلين قرينولد : هو محامي سابق وكاتب وصحفي أمريكي، تدور كتاباته حول الحريات المدنية، وقضايا الأمن، والدولة، وهو ناقد ممتاز ومشهور في الولايات المتحدة الأمريكية.

2- Glenn, Greenwald: (How Noem Chomsky is discussed), The Guardian, 23.March.2013.

هناك مشكلة مع الآخر في الخارج، ولكنها من الدرجة الثانية. أما المشكلة الأولى فتكمن في العلاقة مع الذات والفكر".¹

من الضروري جدا أن ترى شعوب العالم المنتهكة حقوقها أشخاصا يخرجون من صلب هته الدول الظالمة والبراغماتية ليدافعوا عن حقوقها براءة القلم والكتابة، فذاك يسمح لهته الشعوب بأن تخرج طاقاتها المخزونة والثائرة لتذهب وتصاغ في قوالب لغوية جوفاء، وبقتل فيها روح التغيير الذي يخرج هته الشعوب من دائرة التخلف والضعف إلى دائرة أضييق، هي دائرة القوة والتطور.

لكن ما هو العلاج لمثل هته الحالات؟ فنحن نعلم أن حرب العقول أقوى من حرب الطبول.

لم يترك لنا علي حرب أين نضع له الملاحظات، فكما كانت ثورته على مواقف تشومسكي شديدة، وعلى العقل البليد أشد، كان علاجه المقترح أقوى وأغلى، حيث قدم لنا علاجه لهذه المشكلة انطلاقا من سعي الإنسان الدؤوب إلى التحرر من كل المكبات والعوائق التي تحول دون ذلك، ومن هنا يقول:

"ولذا فبداية التحرر، هو أن يتحرر المرء من الذين يمارسون الوصاية عليه، ولو باسم الدفاع عن حريته ومصالحه".²

إذن القضية قضية فكر وثقافة حسب الدكتور علي حرب، فشعوب العالم الثالث عامة والعربية منها خاصة مازالت تعيش في دائرة التخلف الثقافي الهدام والقاهر، الذي يجعل من العقل في هذه اللحظة يتقبل كل ما يورّد له دون فحص وتحليل، كما يجعله سهل التوجيه والتميط، وما الحروب الداخلية الأهلية التي تعيشها هته المناطق إلا دليل قاطع على ذلك. وبالتالي فمواقف تشومسكي المختلفة التي ينصب فيها نفسه حاميا ووصيا على الناس، والتي يرى فيها أنه يشغل حيز المدافعين والمحامين عن الحقوق الإنسانية، تجعل منه مطابقا

1- حرب، علي: أصنام النظرية وأطياف الحرية، (م، س، ذ)، ص، 85.

2- المرجع نفسه، ص، 86.

تماما لما يعارضه، فهذه المواقف لم تزده إلا توسعا وشهرة ونفوذا وقوة، وهو الأمر ذاته الذي تعيشه الرأسمالية الأوروبية والأمريكية التي هي في تعاضم لافت، في مقابل تضاعف التخلف والاضطهاد والتهميش الذي تغرق فيه الشعوب الأخرى، ويعود كل هذا طبعا للخداع الذي يمارسه أمثال تشومسكي.¹

لذلك ربما يعمل تشومسكي في أشهر الجامعات الأمريكية، هذه الجامعة التي تمولها وزارة الدفاع الأمريكية، وربما الغرض من ذلك هو صناعة الرأي الذي يهاجم العقول عن بعد، والمعلوم أن الولايات المتحدة لا تقوم بأي عمل، ولا تمويل أي عملية أو مركز أو معهد دون أن تدرس جيدا نتائجه في أرض الواقع، فهي دولة براغماتية بامتياز.

ب- نقد الرأسماليين الليبراليين:

سنسرد الآن بعض الانتقادات التي وجهها بعض الرأسماليين الليبراليين لموقف تشومسكي، ولا بد أن تكون مواقفهم مناهضة لآراء تشومسكي، مادام أنهم يشكلون طبقة النخبة كما سماها تشومسكي نفسه، وهم الساعون للمحافظة على مصالحهم المختلفة.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الانتقادات موجودة في كتاب واحد جمع فيه صاحبا كتابات العديد من الكتاب، ومن هؤلاء نجد المفكر الأمريكي ستيفن موريس* (Steven Morris) الذي وجه لتشومسكي نقدا لاذعا في كتابه: تبيض الدكتاتورية في فيتنام وكمبوديا (Whitewashing dictatorship in Vitenam and Cambodia) ، يتهمه فيه بالنزوع نحو الفكر الماركسي، فهو حسبه يستمد موقفه من النظرة الماركسية التي ترفض الاعتراف بالطبيعة الاستبدادية للأنظمة الشيوعية.²

1- المرجع السابق، ص، 91.

* ستيفن ج. موريس : هو أحد الأعضاء البارزين في معهد السياسة الخارجية الأمريكية، ألف العديد من الكتب السياسية منها: غزو الفيتنام لكمبوديا، الثقافة السياسية وأسباب الحرب.

2 - Collier Peter, David Horowitz : THE ANTI CHOMSKY READER, Encounter Books, San Francisco, First printing, 2004, P, 01.

يحمل تشومسكي راية الدفاع عن الشعوب المستضعفة من قهر وطغيان الولايات المتحدة الأمريكية، فالآثار التي خلفتها هذه القوة في العالم - إذا اعتبرنا أنها أكبر قوة راهنة - رهيبة جدا خصوصا بإسقاطها للشيوعية، لذلك فوقوفه الدائم إلى جانب هته الشعوب التي هي في أغلبها كانت شيوعية يثير حفيظة الليبراليين الرأسماليين.

توالى الضغوطات على تشومسكي أكثر فأكثر من خلال وقفات الليبراليين المتتالية في وجه سياسته كل مرة، وهاهو ذا ستيفن موريس يعود من جديد ليشتد في لهجته الانتقادية، حيث حول مسار القهر والعدوان الذي تصدره الدول الليبرالية والتي تعتبر الولايات المتحدة راعيته، إلى الدول التي اعتمدت حياة المشاعية، وهي الدول الأكثر فقرا والأكثر تتضرر من السياسة الغربية.

لكن حسب موريس هذه الشعوب التي يدافع عنها تشومسكي هي أخطر الشعوب، لذلك وجه له انتقادا يتهمه فيه بأنه أنكر القمع والقتل الجماعي في ظل الأنظمة الشيوعية خصوصا ما حدث في فنتام وكمبوديا.¹

يضل موقف تشومسكي هذا محل جدل دائم بين المفكرين، فرغم أنه يحمل شعار الدفاع عن الحريات، وعن الأنظمة المنتهكة حقوقها، إلا أنه لا يوازن مواقفه، فهو لا ينتقد بعض الأحداث المهمة التي تحدث في بعض الدول المقهورة والضعيفة، خصوصا عمليات التقتيل والتهجير التي تحدث في كثير من دول العالم الثالث، لهذا ترك تشومسكي مساحة واسعة للنقاد، خصوصا الأغنياء والليبراليين منهم.

كمواصلة لما تعرض له تشومسكي من رفض وانتقاد لبعض مواقفه السياسية، سنرى ما ذهب إليه توماس نيكولاس* (Thomas M. Nicholas) في كتابه: تشومسكي والحرب الباردة (Chomsky and The Cold War) ، حيث يصف توماس تشومسكي بأنه

1 - Ibid ,P, 02

* توماس نيكولاس : هو كاتب ومؤلف، يشغل رئيس قسم الإستراتيجية والسياسة، من مؤلفاته: دروس مستقبل أمريكا من الحرب الباردة.

شخص يسيء استخدام المصادر التي يبني عليها مواقفه السياسية، ويكتب من خلالها كتبه العديدة، حيث يوظف هذه المصادر في قوالب غير قوالبها.

كما صرح توماس أن تشومسكي شوه تاريخ الحرب الباردة تماما، والهدف من ذلك هو التقليل من دور الإيديولوجيات الشيوعية وإلقاء اللوم على الصراع في الولايات المتحدة.¹ إن رؤية الغرب للغزو الشيوعي إبان الحرب الباردة كانت مختلفة عما كان يحدث فعلا من وقائع آن ذاك، فقد شوهت الحقائق حول الشيوعية إلى درجة كبيرة جدا كما لاحظنا ذلك سابقا*، والسبب في ذلك هو خوف اللبراليين البرجوازيين من القوة المنافسة التي كانت تنمو في تلك الفترة، وبالتالي هو خوف من فقدان المصالح والامتيازات التي كانت الولايات المتحدة قد حصلت عليها في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، ومواقف تشومسكي تلك تثير أصحاب المصالح، رغم أن كلاهما يسير في اتجاه واحد، وهو الحفاظ على مصالحه. ومن الانتقادات التي طالت شخص تشومسكي أيضا ورغم أهميتها إلا أنها كانت حسب اعتقادي قاسية للغاية، نجد ما ذهب إليه إلي لهرر* (Eli Lehrer) في كتابه: تشومسكي والإعلام، السيطرة على وسائل الإعلام والتلاعب بالناس (CHOMSKY AND THE MEDIA, A kept press and a manipulated people)

حيث يؤكد "ألي" في هذا الكتاب أن تشومسكي إنسان دخيل على الإعلام، ولا يعرف سوى القليل عن وسائل الإعلام.²

في حقيقة الأمر أرى أن هذا النقد الذي وجهه ألي لتشومسكي غير صحيح، فالدور الذي يقوم به الإعلام الحديث جد خطير، فالرأي العام الآن أصبح ينقاد تمام الانقياد وبسهولة

1 – Op. Cit, P, 35.

* أنظر: الفصل الأول، المبحث الثاني: دور الإعلام في السياسة الخارجية.

* إلي لهرر: هو محرر سابق في المؤسسة الأمريكية. وهو حاليا المحلل لشركة التكنولوجيا والمعلومات العالمية الأمريكية (UNISYS) التي مقرها في بلوويل، ولاية بنسلفانيا، التي توفر مجموعة من خدمات تكنولوجيا المعلومات والبرمجيات والتكنولوجيا.

2 – Op. Cit, P, 68.

بالغة بما تقدمه وسائل الإعلام، وحتى الخاصة منها تقوم أساسا على خدمة الطبقة النخبوية رغم ما تبديه من تعامل وتضامن مع بقية الطبقات.

هذا وفي الجانب السياسي أيضا تطرق كل من رونالد رادوش * (Ronald Radosh) و ديفيد هورويتز * (David Horowitz) في الكتاب المشترك بينهما تحت عنوان : تشومسكي و 11/9، (CHOMSKY AND 11/ 9) إلى الخطاب الذي ألقاه تشومسكي مباشرة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وأثناء تحليلها زعما أن تشومسكي كان يكشف عن مؤامرة من قبل واشنطن لتجويد متعمد لثلاثة أو أربعة ملايين من المدنيين الأبرياء في أفغانستان، وزعما أيضا أن تشومسكي يبرر هجمات الحادي عشر من سبتمبر في خطابه، ويشوه التاريخ الأمريكي، ويجعل الولايات المتحدة تظهر على أنها دولة إرهابية، خصوصا لما قال: بأن سبب الهجوم هو جرائم أمريكا نفسها.¹

الصورة التي نقلتها وسائل الإعلام حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت ظاهريا جد واضحة، وهي أن الولايات المتحدة تعرضت لهجوم إرهابي مقصود، وكانت حصيلة الخسائر المادية والبشرية هائلة، لذلك تعاطف العالم كافة مع أمريكا في محنتها تلك، لكن التحقيقات والدراسات أظهرت بعض الخبايا التي جعلت هذه الأحداث تلبس رداء الألغاز، ومن هذه الدراسات التي ذاعت بعد ذلك، أن واشنطن لها يد في تلك الأحداث والهدف من ذلك فتح بؤر جديدة للصراع في العالم بغية الحفاظ على مواردها الخام، خصوصا وأن الدراسات كانت تشير إلى أن الولايات المتحدة في حاجة إلى النفط الذي بدأ ينفذ، وما شهدته العالم من أحداث بعد ذلك ربما يثبت ذلك إلى درجة كبيرة، وبالضبط ما جرى في العراق وأفغانستان، ومن هذه الخبايا التي ذاعت أيضا أن هذه الهجمات كان خلفها اليهود الذين

* رونالد رادوش: وهو كاتب ومؤلف من مؤلفاته: العمل النهائي في قضية روزنبرغ، الشيوعيون: رحلة عبر اليسار القديم، اليسار الجديد وبقايا اليسار.

* ديفيد هورويتز: رئيس مركز الدراسات الثقافية الشعبية، وهو كاتب ومؤلف من مؤلفاته: الراديكالي الإبن، سياسة سوء النية، الحروب الهمجية.

1 - Ibid, P, 161.

حاولوا إعادة بعث الصراع المسيحي الإسلامي من جديد، ما دام أن الولايات المتحدة كانت قد بدأت في التخلي عن إسرائيل، وهذه الهجمات كانت سبب عودة التحالف بينهما، وربما ما يثبت ذلك أيضا أنه يوجد ما يربو عن 400 عامل يهودي يمارسون أعمالهم في برج التجارة العالمية كلهم غابوا عن أعمالهم يوم الهجوم، وهذا يبعث عن التساؤل فعلا، كما أن التسريحات التي أدلى بها جورج بوش الابن والتي قال فيها أن الحروب الصليبية عادت من جديد والتي أشرنا إليها سابقا، تظهر أن هذه الهجمات ربما كانت مقصودة وإلا فكيف يقول ذلك وهو لم يعرف مصدر هذه الهجمات، وبالتالي فتصريحات تشومسكي ربما تكون تحمل الكثير من الحقائق، وربما لا.

وفي نفس السياق يعالج ديفيد هورويتز* (David Horowitz) في كتابه: استحوذات نعوم تشومسكي المناهض لأمريكا (NOAM CHOMSKY'S ANTI-AMERICAN OBSESSION) موقف تشومسكي حيث يتهمه بأنه المنظر المناهض للولايات المتحدة التي يعتبرها هي الشر، حيث أن تشومسكي يعيد كتابة التاريخ الأمريكي على هذا الأساس. ويدعي أيضا أن تشومسكي هو المصدر الفكري للسياسة المناهضة للولايات المتحدة اليوم.¹ هذا يثبت فعلا أن كل من يكون وراء هذه الانتقادات الموجهة لتشومسكي من داخل الولايات المتحدة يكون لبراليا قحا، يخاف عن مصالحه ومصالح بلده، وإلا فلماذا يوصف تشومسكي باليساري إن لم يكن يهدف من وراء مواقفه إلى تحسين الوضع في المجتمع الأمريكي إلى حالة أكثر عدل ومساواة، طبعا يضل هذا الرأي أحد الأبواق المناهضة لما قدمه تشومسكي خلال مسيرته الحافلة بالرفض لأعمال التي تقوم بها الولايات المتحدة في الداخل والخارج.

* ديفيد هورويتز: رئيس مركز الدراسات الثقافية الشعبية، وهو كاتب ومؤلف من مؤلفاته: الراديكالي الابن، سياسة سوء النية، الحروب الهمجية.

1 - Op. Cit, P, 181.

ودون أن يقوم تشومسكي بفضح الأعمال التخريبية والإجرامية التي تقوم بها الولايات المتحدة، فالإعلام المعاصر والمباشر يقوم بذلك على أكمل وجه، فأمريكا قدمت نفسها للعالم على أنها أقوى قوة في العالم، وهدفها هو حماية العالم من الشرور التي قد تهدده، لكنها بالغت في الأمر حيث نصبت نفسها على أنها الوحيدة التي تعرف ما يلزم الشعوب لتعيش حياتها، فجعلت شعوب العالم كلها في مصاف أدنى بكثير من المجتمع الأمريكي المتحضر والمتطور على كافة الأصعدة والمجالات.

لكن حقيقة الأمر غير ذلك تماما فالمعانات الحقيقية للعالم تبدأ من معاناة الرجل الأمريكي داخل بلده، أين يعاني الكثير من الآلام التي تخلفها الحياة المادية المبالغ فيها، كما يعيش رعب القلق النفسي الذي يخلفه طغيان المادة على الجانب الروحي العقائدي في الإنسان. وبالتالي فهذه الانتقادات التي قدمها الليبراليون تظل في اعتقادي الشخصي ناقصة كثيرا ولا تعبر عن حقيقة تشومسكي، وذلك لسببين إما انطلاقا من خلفيتهم الإيديولوجية وانتمائهم للرأسمالية، أو لعدم فهمهم حقيقة المواقف التي يتبناها تشومسكي، والتي هي في رأي مواقف خادعة.

خاتمة

خاتمة :

ختاما لهذا الموضوع اتضح جليا من مواقف وأفكار نعوم تشومسكي ما يلي:

- إن التغيرات السياسية داخل الولايات المتحدة أفرزت مجموعة من القراصنة يلبسون ثياب الساسة الأقوياء الذين يحملون النبل والشرف في دواخلهم، والذين هم في سعي دائم للمحافظة على مجتمعهم ظاهريا، لكن حقيقة الأمر أنهم لا يسعون إلا للسيطرة على أفكار الرجل الأمريكي بأي وسيلة أتاحت، كما يفعلون أي شيء من أجل السيطرة والهيمنة على المجتمع بأطيافه المختلفة.

- كما نجد كاستنتاج أيضا أن أهم وسيلة استغلها هؤلاء الساسة للوصول إلى مآربهم وقضاء حاجياتهم، تمثلت في الإعلام، الذي هو وسيلة جد ناجعة، إذ من خلاله تم التحكم في الرأي العام الأمريكي بكل بساطة.

- إضافة إلى ذلك وجدنا أن الضربات المتتالية التي ناور بها أصحاب هذه الطبقة ضد بقية أطياف المجتمع خلقت نوعا من التحول الجذري في شخصية الإنسان الأمريكي، حيث أصبح إنسانا منمطا، إنسان لا مبادئ له ولا أسس، سهل التغيير على حسب الأهواء والحالات، بل أصبح متقلب المزاج مرن الشخصية لا تجود لديه أي قواعد ثابتة، ومنطلقات أصلية دينية كانت أو أخلاقية أو اجتماعية أو ثقافية، لذلك فهو إنسان فاقد للسيطرة على نفسه، وبالتالي فهو خاضع للسيطرة المطلقة والدائمة للسلطة التي تحكمه، وهي سلطة الأقلية الخاصة.

- كما وضح لنا تشومسكي أيضا ما كان خفيا عنا من سياسات تمارس على المستوى الخارجي، فالولايات المتحدة الأمريكية تقدم مصالحها فوق كل اعتبار، وقد لاحظنا من الأمثلة الكثيرة التي استشهد بها تشومسكي على مواقفه، مثال دكتاتوريو العالم أنهم أكثر الناس قسوة على شعوبهم، وأكثرهم استغلالا لموارد بلدانهم وخيراتهما، فمادام هؤلاء خاضعين للسيطرة السياسية والاقتصادية الأمريكية، مادام استمرارهم في مناصبهم وأماكنهم على حاله.

- أما فيما يخص موقف تشومسكي من الدين والميتافيزيقا فقد وجدنا أنه موقف يشوبه الكثير من الغموض، فهو يرفض الديانات المنظمة التي تبنى على شعائر دينية محددة وقواعد معينة، لكن يرى في الوقت عينه أن الكثير من المظاهر الدينية الموجودة الآن إيجابية إلى حد كبير، بحيث تساعد المجتمع في التماسك أكثر، وبالتالي فالأجدر أن يكون موقفنا من آرائه بأن نسماها بالإلحاد النسبي، لأن هذه الآراء يشوبها الكثير من التردد والانزواء لما يتحدث عن الدين والميتافيزيقا.

- أما فيما يخص الانتقادات التي وجهت إليه فقد تبين أن هناك نوعين من الانتقادات الأولى منها أعتبرها أكثر صحة ودقة، لأنه في نظري وجهت له دون خلفيات إيديولوجية، أو دوافع دينية، وإنما بنية في اعتقادي على أسس واستنتاجات كانت تميل إلى المنطقية والعلمية أكثر من غيرها، أما النوع الثاني فأرى أنها انتقادات لم تكن منطقية أو تحمل أسس حقيقية، بل هي نتاج خلفية إيديولوجية وفكرية واضحة، ونتيجة التعارض الموجود بين طبيعة الفكر الذي ينادي به تشومسكي وطبيعة الأفكار التي ينادي بها الليبراليون حدث هذا الرفض الفكري من قبلهم، وحتى الحجج التي تبناها كانت في رأي عقيمة، وبمعنى آخر غير بناءة، فهي نقد من أجل النقد، لذلك ربما فضلنا في تحليلنا لها انتقادها بدل تبنيها.

وفي الأخير يمكن أن نختم بحثنا هذا بتساؤل حاولنا أن نجيب عنه لما تناولنا الجانب الديني ولم نستطع، وهو:

هل ما يظهر تشومسكي من مواقف يعبر تماما عن فكره، أم أنه يخفي ما لا يظهر؟

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الحديث الشريف.

المصادر باللغة العربية:

نعوم تشومسكي:

1. أشياء لن تسمع بها أبدا...، تر: أسعد الحسين، دار نينوى، دمشق، د. ط (دون طبعة)، 2010.

2. الدولة الفاشلة، تر: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ط (دون طبعة)، 2007.

3. الريح فوق الشعب الليبرالية الجديدة والنظام العولمي، تر: مازن الحسيني، دار التتوير للترجمة والطباعة والنشر، رام الله (فلسطين)، الطبعة الأولى، 2000.

4. سنة 501 الغزو مستمر، تر: مي النبهان، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، د. ط (دون طبعة)، 1996.

5. السيطرة على الإعلام، تر: أميمة عبد اللطيف، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003.

6. ماذا يريد العم سام؟!، تر: عادل المعلم، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997.

7. الهيمنة أم البقاء، تر: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ط (دون طبعة)، 2004.

Noam CHOMSKY:

1. Chronicles of Dissent Interviewed by David Barsamian, New Star Books Vancouver, Canada, First printing, 1992.
2. Pirates and Emperors Old and New, South End Press, USA, 2002.
3. POWERS AND PROSPECTS, Pluto Press, London, 1996.
4. Secrets Lies and Democracy, Odonian Press, Tucson, Arizona, (USA), 1994.
5. The Culture of Terrorism, Pluto Press, London, 1988–1989.
6. TURNING THE TIDE US Intervention in central America and the Struggle for peace, South End Press, Boston, 1985.

المراجع بالعربية:

1. الأب صبري المقدسي: الموجز في المذاهب والأديان، ج1، مطبعة ميديا، أربيل (العراق)، ط1، 2007.
2. أبي الفتح محمد الشهرستاني: الملل والنحل، ج.2، تح: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعود، دار المعرفة ، بيروت- لبنان، ط.3، 1993.
3. أحمد أمين: قصة الفلسفة الحديثة، ج.1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1967.

4. إسماعيل بن عمر ابن كثير: البداية والنهاية، ج.15، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الجيزة- مصر، ط.1، 1998.
5. إمام عبد الفتاح إمام: الأخلاق..والسياسة (دراسة في فلسفة الحكم)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2001.
6. بدوي عبد الرحمان: فلسفة العصور الوسطى، وكالة المطبوعات ودار القلم، ط.2، الكويت، بيروت، 1979.
7. ستيس والتر: تاريخ الفلسفة اليونانية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر و التوزيع، القاهرة، 1984.
8. الشريف زيتوني: مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية، تصدير محمود يعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006.
9. عبد الرحمان بدوي: الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
10. علي حرب: أصنام النظرية وأطياف الحرية، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط.1، 2001.
11. فرانسوا ديماس: آلهة مصر، تر: زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997.
12. فضل الله محمد إسماعيل: الأصول اليونانية للفكر الغربي الحديث، بستان المعرفة، ط.1، 2001.

13. فهمي زيدان محمود: كانط وفلسفته النظرية، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، 2004.

14. قرني عزت: الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، جامعة الكويت، الكويت، 1993.

15. محمد الخطيب: الفكر الإغريقي، دار علاء الدين، دمشق، ط.1، 1999.

16. محمد جلال شرف، ومحمد علي عبد المعطي: الفكر السياسي في الإسلام شخصيات ومذاهب، دار الجامعات المصرية، إسكندرية، 1978.

17. محمد عابد الجابري: قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط.1، 1997.

18. محمد عبد الحميد الحمد: صابئة حران وإخوان الصفا، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، ط.1، 1998.

19. محمد عبد الحميد الحمد: صابئة حران والتوحيد الدرزي، دار الطليعة الجديدة، دمشق - سوريا، ط.4، 2011.

20. محمد عثمان الخشت: الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ط (دون طبعة)، د.س (دون سنة).

21. محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976.

22. محمود يعقوبي: خلاصة الميتافيزيقا، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2002.

23. مصطفى إبراهيم: الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء، إسكندرية، 2000.

24. معروف نايف: الإنسان والعقل، دار سبيل الرشاد، ط.1، بيروت، 1995.
25. نيقولا مكيا فيلي: كتاب الأمير، تر. أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، دون ط، 2004
26. يحي هويدي: دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1968.
27. يوسف حامد الشين: الفلسفة المثالية قراءة جديدة لنشأتها وتطورها وغاياتها، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي - ليبيا، ط.1، 1998.

المراجع باللغة الأجنبية:

1. Donaldo Mecedo: Chomsky on MisEducation, Rowman and Littlefield Publishers (INC), Lecture at Loyola University, Chicago, 19 October 1994.
2. George Edward Moore,: Principia ethica, Cambridge at the university press, 1922.
3. Jean – Cassin Billier: Kant et le kantisme, armondcalin, masson, Paris, 1998.
4. Peter Collier, David Horowitz : THE ANTI CHOMSKY READER, Encounter Books, San Francisco, First printing, 2004.

المعاجم والموسوعات:

1. إبراهيم مدكور،: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، د. ط (دون طبعة)، 1983.
2. ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، طبعة جديدة، 1981.
3. أحمد، أبي الحسين، بن فارس، بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د ط، 1399 هـ 1979 م.
4. أندريه لالاند،: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت - باريس، الطبعة الثانية، 2001.
5. جميل صليبا،: المعجم الفلسفي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبنانية، بيروت لبنان، د. ط (دون طبعة)، 1982.
6. روزنتال (م)، ويودين (ب) : الموسوعة الفلسفية ، ط2 ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت ، 1997 م.
7. عبد الرحمان بدوي: الموسوعة الفلسفية ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والشرح ، مصر ، 1984 م.
8. لحام، سعيد محمد، وآخرون: القاموس السياسي ومصطلحات المؤتمرات الدولية، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط.1، 2004.
9. محمد، مجد الدين، بن يعقوب، الفيروزآبادي: القاموس المحيط، إيش: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان، ط.8، 2005.

– الجرائد والمجلات:

1. إدوارد بيرنيز: (في مفهوم السيطرة عند نعوم تشومسكي "2-2")، مجلة راديكال (إلكترونية نصف شهرية)، العدد 41، 31/16 كانون الأول (ديسمبر) 2013.
2. فهد عامر الأحمدى: (الرواية القضية.. شفرة دافينش)، جريدة الرياض (الإلكترونية)، مؤسسة اليمامة الصحفية، العدد، 13530، تاريخ النشر: 10، يوليو، 2005.

باللغة الأجنبية:

1. Glenn Greenwald: (How Noam Chomsky is discussed), The Guardian, 23.March.2013.
- 2.Noam Chomsky : (Beyond Belief), Salk Institute, La Jolla, California, USA, 5–7, November, 2006.
- 3.Noam Chomsky : (Definition of God), Interview with Noam Chomsky, 17, 05, 1998. (www.Lbbs.org).
- 4.William Crawley : (Chomsky on religion and the ethics of war), Uk Time, UK, 25, 10, 2009.

هـ – الرسائل:

- باللغة الأجنبية:

- Noam, Chomsky: The Propaganda System, Letter from Lexington, 6 April 1992.

و - المواقع الإلكترونية:

- 1- <http://alhawali.com/index.cfm?method=home.SubContent&contentID=28#> (تاريخ الإطلاع عليه: 2014/02/21)
- 2- <http://alintibaha.net/porta/> صديق-البادي / صديق-البادي - مع-الفيل-وليست-مع-ظله - صديق-البادي (تاريخ الإطلاع عليه: 2014/05/11)
- 3- <http://ar.wikipedia.org>
- 4- <http://ency.kacemb.com/> (تاريخ الإطلاع عليه: / فيلمر،-سير-روبرت (2014/02/19)
- 5- <http://explorethemed.com/GreekRelAr.asp> (تاريخ الإطلاع عليه: (2014/01/18)
- 6- <http://www.alagidah.com/vb/showthread.php?t=8178> (تاريخ الإطلاع عليه: 2014/01/02)
- 7- <http://www.elmessiri.com/encyclopedia/JEWISH/ENCYCLOPID/MG3/GZ2/BA12/MD15/M0364.HTM>. (تاريخ الإطلاع عليه: (2014/08/7.8.9)
- 8- <http://www.kitabat.com/ar/page/22/05/2014/28377/> (تاريخ الإطلاع عليه: 2014/05/22.24)
- 9- <http://www.mesopot.com/old/adad9/52.htm> (تاريخ الإطلاع عليه: (2014/01/03)
- 10- <https://www.youtube.com/watch?v=noKena-9vZo> (تاريخ الإطلاع عليه: 2014/04/13)

1- مقدمة	ص 1
2- خارطة المفاهيم	ص 8
أ- جينالوجيا الدين	ص 9
ب- جينالوجيا السياسة	ص 13
ج- جينالوجيا الميتافيزيقا	ص 15
3- الفصل الأول	ص 18
أ- المبحث الأول: كرونولوجيا الدين	ص 19
أ.1- حضارة ما بين النهرين	ص 23
أ.2- الحضارة المصرية	ص 24
أ.3- الحضارة اليونانية وربط الدين بالميتافيزيقا	ص 26
أ.4- العصر الوسيط	ص 34
أ.5- العصر الحديث والمعاصر	ص 38
ب- المبحث الثاني: كرونولوجيا السياسة	ص 42
ب.1- الحكم المطلق	ص 43
- الحكم الثيوقراطي والحكم الملكي المطلق	ص 43
- وفاس هوبز	ص 45
- ديفيد هيوم	ص 47
- لملكية المقيدة (الملكية الدستورية)	ص 49
ب.2- الحكم الجماعي	ص 51

- الديمقراطية ص 51.
- 4- الفصل الثاني ص 58.
- أ- المبحث الأول: السياسة الداخلية للولايات المتحدة ص 59.
- أ1/ سياسة الإعلام ومدى تأثيرها على الفرد الأمريكي ص 60.
- أ2/ شعارات الولايات المتحدة ص 72.
- أ3/ رؤساء وحكام الولايات المتحدة الأمريكية ص 78.
- ب- المبحث الثاني ص 81.
- ب1/ السياسة الخارجية للولايات المتحدة ص 82.
- ب2/ موقف الولايات المتحدة من الأنظمة السياسية في نظر تشومسكي ص 84.
- ب3/ ما للإرهاب في نظر تشومسكي ص 86.
- ب4/ موقف تشومسكي من حقوق الإنسان ص 93.
- 5- الفصل الثالث ص 98.
- أ- المبحث الأول ص 98.
- نظرة تشومسكي للدينية والميتافيزيقية ص 99.
- ب- المبحث الثاني: نقد مواقف تشومسكي ص 107.
- ب1/ نقد عام ص 112.
- ب2/ نقد الرؤساء الليبراليين ص 112.
- 6- خاتمة ص 125.
- 7- قائمة المصادر والمراجع ص 128.
- 8- فهرس ص 136.